القصص الحق

سماحة السيد محمد المهدي الحسيني الشيرازي (قدس سره)

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يثير في نفسك الحزن والشجن هو أن ترى الإنسانيّة تنجر من مواطن العظمة التي هيأت لها إلى مواطن الوحل الآسن، وما يحز في نفسك اكثر من ذلك هو أن تجد العبر المُحتَضَنة في صفحات القرآن الكريم والمردّدة لها كلمات التاريخ البشري القابعة بين سطوره على مر الأزمنة لا ينظر إليها ولا يُرعَوى بها.

وسواء أكانت علة ذلك الأمر. الحجج الواهية التي يتمنطق بها ذوو القلوب العليلة، والنفوس الصدئة. وهي حجج أوهن من بيت العنكبوت، أو كانت علة ذلك الأمر مجافاتنا لكتاب الله، فحالة الإنسانية اليوم لا تحسد عليها.

والعبر التي نتحدث عنها، والتي يحويها هذا الكتاب الذي بين يديك ليست سوى (قصص الحق) في صراعه المزمن مع الباطل، أي قصص الأنبياء والرسل والصالحين في صراعهم مع أقوامهم من أجل تطبيق رسالات السماء والحفاظ عليها وهي التي أريد بها إنقاذ البشر من مهواهم السحيق الذي انجرفوا إليه. وهدايتهم إلى النور المشع بعد تقلبهم في غياهب الديجور.

وقد أراد الله عز وجل من خلال ذكره هذه القصص المعبرة عن هذا الصراع في القرآن الكريم، أن تكون عبراً للأجيال المتلاحقة كما قال عز وجل: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)[1] حتى لا يكون لهم عذر أو حجة يوم الفزع الأكبر، يوم يسألون: (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) فيكون جوابهم يومئذ مقتضبا: (شهدنا على أنفسنا) ويوضح الله عز وجل حكمه عليهم بعد ذلك وسببه فيقول: (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)[2].

مؤسسة الوفاء
23/ شعبان/1404
24/آيار/1984

---

(1) سورة يوسف: الآية 111.

(2) سورة الأنعام: الآية 131.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله (عليهم السلام)، واللعنة على أعدائهم أجمعين.

إبراهيم (عليه السلام)

ــ 1 ــ

كان رجلٌ اسمُهُ آزر، منجماً لملك جبَّارٍ يُسمَّى (نمرود) وكان (نمرود) كافراً باللهِ تعالى.

فقال آزر للملك يوماً: إني أرى في حسابٍ للنجوم: أنّهُ سينشأُ رجلٌ ينسخُ دينَكَ أيُّها الملكُ، ويدعو إلى دينٍ جديد

فسأل الملك آزر: وهل وُلِدَ هذا المولود؟

قالَ آزر: لا..

قالَ الملك: ينبغي أن يفرّق بين الرجالِ والنساءِ، حتى لا يحصلَ تزاوج، ليكونَ بينهما نسلٌ.

ثمّ أمَرَ الملكُ بمفارقة الرجالِ للنساء، ولكن شاء اللهُ أن تحمل أمُّ (إبراهيم) بهذا المولود. فحملت.. وأخفَتْ حملها عن الناس، حتى عن أبيه. فلمّا أخذ أمّ (إبراهيم) الطلق، ذهبتْ إلى مكانٍ مستترٍ ووضعتْ بإبراهيم، خوفاً على ولدها، ثم قمطته، ورجعت إلى دارها. وكانت الأمّ تختلف إلى ولدها وكان ينمو إبراهيم نمواً سريعاً حتى بلغَ مبلغَ الفتيان.

واشتدّ حكمُ نمرود على الأولاد، فكان يقتل كلَّ ولد ذَكر. ولكن شاءَ الله أن يبقى إبراهيم في أمنٍ من الملك السفَّاك.

ــ 2 ــ

خرج ذات يوم إبراهيمُ من مخبئهِ، وعمرُه إذ ذاك ثلاثَ عشرة سنةً. فنظر إلى آثار قدرة الله تعالى في السماوات والأرض، وشاء الله أن يلفت نظر إبراهيم إلى آيات الكون (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماواتِ والأرض وليكونَ من الموقنين) وهكذا، كان ينظرُ إلى آياتِ الله تعالى، حتى قربت الشمس للأفول.

(فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً) في السماء وكان الكوكبُ (زهرة)، ورأى إنّ جماعة من الناس يعبدونه، ويخضعون له فتعجّب من فعلهم هذا.

و(قال) مستنكراً عبادتهم للكوكب: (هذا ربي)؟ ونظر إليهم في صمت! لكن كان يتحيّن الفرصةَ، للردّ عليهم..

فلمّا (أفل) غربَ الكوكبُ.. واختفى عن الأبصار توجّهَ إلى أولئك النفر الذين كانوا يعبدون الكوكب و(قال) لهم: (لا أحبُّ الآفلين).

ــ 3 ــ

ثم مرّ بجماعة أخرى، فرآهم يخضعون للقمر ويعبدونه.

(فلما رأى القمر بازغاً) طالعاً من الأفق.. ورأى أن أولئك النفر يعبدونه (قال هذا ربي)؟! مستنكراً فعلهم، متعجباً من عبادتهم!!

لكنّه صبر، وانتظر، حتى يرد عليهم، وتحيّن الفرصة! (فلما أفل) اختفى تحت الأفق! توجّه إلى القوم، و(قال): (لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضّالّين).

ــ 4 ــ

وبعد ذلك.. بقي إبراهيم، إلى أن طلعَ الصبحُ، وخرجت الشمس وإذا به يمرّ بجماعة، يسجدون للشمس، ويعبدونها!

(فلما رأى الشمس بازغةً) ورأى أنّ القوم يخضعون أمامها (قال هذا ربّي هذا أكبر)؟! مستنكراً فعلهم، متعجّباً منهم، كيف يتخذون الشمس إلهاً؟!

لكنه صبر، حتى يردّ عليهم.. وإذا بالشمس تميل نحو الغروب.

(فلما أفلت) وغابت عن الأبصار.. توجه إلى أولئك النفر الذين كانوا يعبدونها و(قال يا قوم إني بريء مما تُشركون) وكيف تجعلون لله شريكاً؟ إن (الزهرة) و(القمر) و(الشمس) ليست بإله.

(إنّي وجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السماواتِ والأرض) خلقها، وأبدع صُنعها.. (حنيفاً) مائلاً عن الشرك إلى الإيمان بالله (وما أنا من المشركين).

ـ 5 ـ

كان (آزر) منجّم الملك (نمرود) عم إبراهيم، وكان عارفاً بنحت الأصنام، فكان ينحتها ويعطيها لأولاده، حتى يبيعوها للناس. وكان إبراهيم يحترم عمّه (آزر)، حتى أنه كان يناديه: (يا أبه)! وقد أحبّ آزرُ ولد أخيه حباً شديداً.

ولما كبر إبراهيم ورشد، دفع إليه (آزر) بعض الأصنام التي كان قد نحتها، وأمره أن يبيعها، كما يبيع أُخوته. لكن إبراهيم، كان نبياً عظيماً، يعلم إنّ هذه الأصنام ليست بآلهة، وإنما هي أشياء منحوتة. فكان يعلّق في أعناقها الخيوط.. ويجرّها على الأرض ويقول:

من يشتري ما لا يضرُّه ولا ينفعُه؟

وكان يستهزئ بالأصنام.. فيُغرّقها في الماء والوحل.. ويقول لها:

اشربي.. وتكلمي.

ـ 6 ـ

وفي ذات يوم، وشى أُخوتُه خبر ما يفعلُ إبراهيمُ بالأصنام إلى (آزر) فنهاهُ آزرُ عن هذا العمل.. فلم ينته إبراهيم، عند ذلك، اغتاظ آزر فحبس إبراهيمَ في منزله ولم يدَعْهُ يخرج.

ولما انكشف أمرُ إبراهيمَ عند (آزر) وأنه يعبد الله تعالى ولا يعبد الأصنام، التي كان (آزر) يعبدها، ذهب إبراهيم إليه، ليدعُوه إلى الله، وأخذ يدعوه بكلّ أدبٍ ولطفٍ، قال: (يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنك شيئاً)؟

(يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك) وقد علمت أن هذه الأصنام ليست بآلهة، وإنما الإلهُ هو الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما (فاتبعني أهدِكَ صراطاً سوياً).

(يا أبتِ لا تعبدْ الشيطان) فانك إذا عبدتَ الأصنامَ، كنت عبدتَ الشيطان لأنك قبلت قوله، وخالفت أوامر الله (إن الشيطان كان للرحمن عصيّاً). (يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن).

وهكذا أخذ إبراهيم، ينصح عمّه (آزر) بكلّ أدب ولطف، لكن عمّه اغتاظ من مقالة إبراهيم، و(قال أراغِب أنت عن آلهتي يا إبراهيم)؟! وتعبدُ إلهاً آخر؟! (لئنْ لم تنتَهِ) عن مقالك هذا، (لأرجمنَّكَ) بالحجارة، حتى تموتَ.

ثم طرد إبراهيم من عنده، (و) قال له: (اهجرني ملياً): تغيّب عني مدة مديدة، حتى لا أراك.

ولما رأى إبراهيم هذه الخشونة والتهديد من آزر، ودّعه وداع متأدب، (قال سلام عليك) سلامُ وداع.

(سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً) وأطلب منه أن يغفر لك (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربّي شقياً) وانصرف إبراهيم من عنده كئيباً.

ــ 7 ــ

وشرع إبراهيم يدعو إلى الله تعالى، ويأمر قومه بنبذ الأصنام، ولكن.. القوم لم يستجيبوا لإبراهيم دعوته وأصرّوا على الشرك (وحاجّة قومه) في ألوهيّة الأصنام.. قالوا: إن الأصنام هي الآلهة، واللازم علينا أن نعبدها.

(قال أتحاجّوني في الله) وتدعوني إلى أن اترك الله (وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به) فإني لا أخاف من آلهتكم، وأي ضرر يمكن أن يضرّني به الصنم أو الكوكب والقمر والشمس؟ كلاّ! إنها لا تضر ولا تنفع (إلا أن يشاء ربي شيئاً) فانّ ربي هو الذي يضر وينفع، وأن أصنامكم لا تعلم شيئاً (وسع ربي كلّ شيءٍ علماً) يعلم كل شيء (أفلا تتذكرون)؟

ثم خوفهم إبراهيم من عذاب الله، قال: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) وجعلتم له شريكاً كذباً، لكنّ القوم أصرّوا في العناد.. ولم ينفعهم كلام إبراهيم. ثم أخذ ينصحهم مرّة ثانيةً.

(إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون)؟

(قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين).

(قال هل يسمعونكم إذ تدعون)؟

قالوا: لا.. إنها أصنام من جماد لا تسمع دعوتنا.

قال: هل (ينفعونكم أو يضرّون)؟

قالوا: لا.. إنها لا تتمكّن من جلب نفع أو دفع ضرر.

قال: فكيف تعبدون ما لا يسمع.. ولا ينفع.. ولا يدفع؟

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وإنا نتبع آباءنا تقليداً لهم.

(قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين) إن الأصنام أعداء الإنسان، إنها توجب للإنسان شرّ الدنيا وشرّ الآخرة. أمّا الله تعالى فهو الذي يدبّر أمور الإنسان: (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين). ولكنّ القوم لم يقبلوا كلام إبراهيم، وركبوا رؤوسهم، ولم يؤثر فيهم نصحه ومنطقه.

ــ 8 ــ

حضر عيدٌ للقوم.. وخرج الملك الجبّار (نمرود) وأهل المدينة إلى الصحراء، لأداء مراسيم العيد هناك ولم يخرج معهم إبراهيم. فلما ذهبوا، أخذ إبراهيم شيئاً من الطعام، وذهب إلى بيت الأصنام.

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون)؟ (ما لكم لا تنطقون)؟

فكان يدنو من كل صنم فيقول له: كل.. تكلم. فإذا لم يجبه، أخذ القدّوم، فكسر يده ورجله. ثم علّق القدوم في عنق الصنم الكبير، الذي كان في صدر البيت. وخرج لشأنه..

ــ 9 ــ

ورجع الملك والقوم من العيد.. ولما دخلوا دار الأصنام، رأوا الأصنام محطّمة. فكثر فيهم اللغو والصياح. من فعل هذا بآلهتهم؟ ومن تجرّأ على مسّ كرامة مقدساتهم. وأخذوا يستفسرون الناس:

(قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الضالمين)؟

(قالوا سمعنا فتى يذكرهم) يذكر الأصنام بسوء (يقال له إبراهيم).

(قالوا فأتوا به على أعين الناس) وإذا بالقوم يطلبون إبراهيم.. هنا.. وهنا حتى وجدوه وجاءوا به إلى مجمع الناس. وهناك نظر القوم إليه في غضب واستنكار، (وقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)؟ورأى إبراهيم الموقع مهيئاً، لنشر الدعوة فأشار إلى كبير الأصنام، الذي كان القدوم في عنقه، وقال: كسّر الأصنام هذا الصنم الكبير إن نطق.. ومعناه: وإن لم ينطق فلم يفعل كبير الأصنام ذلك.

وأراد بهذا الكلام أن يرشدهم إلى أنّ الصنم لا يتكلم فكيف تتخذونه رباً؟ ووقع كلام إبراهيم في قلوبهم: كيف يُعبد صنم لا يكلم؟ (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون) وليس إبراهيم ظالماً.. إنه أراد هدايتكم، وأنتم الذين تزيدون عناداً وإصراراً. (ثم نكسوا على رؤوسهم) فلم يرفعوها خجلاً. وأخذوا يتمتمون في أنفسهم: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف نتخذهم رباً؟

واغتنم إبراهيم هذه الفرصة، فأخذ يعاتبهم على عبادة الأصنام و(قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)؟!

ــ 10 ــ

استشار (نمرود) قومه، في أمر إبراهيم (قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين). فحبس إبراهيم، وأمر بجمع الحطب ــ ولقد كان في قليل من الحطب كفاية لحرق إنسان ــ لكن القوم من كثرة غضبهم على محطّم آلهتهم. أخذوا يجمعون الحطب من كل مكان، حتى صار الحطب كجبل عظيم.. ثم أشعلوا الحطب ناراً.. فانتشرت حرارتها في الفضاء بحيث لم يكن يحلّق طائر في تلك الأجواء، إلا سقط محترقاً.. ولم يتمكن ذو روح من الدنو.

وحينذاك صعب عليهم الأمر، يا ترى كيف يلقون إبراهيم في تلك النار التي لا يتمكن من اقترابها بشر؟ وإذ هم في حيرة من أمرهم. أشار شخص أن يصنعوا المنجنيق، وهي آلةٌ حربية، تقذف بما يوضع فيها من إنسان أو حجر أو غيرهما. فاستصوبوا رأيه، وأمر الملك الطاغي، بصنع الآلة..

فصنعت ثم وضعوا فيها إبراهيم. وهناك جاء (آزر) عمّه، فلطم إبراهيم، وقال له: ارجع عما أنت عليه.. إشفاقاً على إبراهيم من الحرق.

لكن (إبراهيم) كان أربط جأشاً، من أن يضعضع إيمانه خوف أو تهديد.. فلزم جانب الحق، ولم يرجع، بل أصرّ على مبدئه، وإن حرق بالنار.

ــ 11 ــ

وحينذاك أمر (نمرود) الرّماة، أن يقذفوا إبراهيم في النار! فحركوا عجلة (المنجنيق) فرمت بإبراهيم في الفضاء نحو النار.. وعند إطلاق إبراهيم، أمر الله تعالى النار: (قلنا يا

نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)، فانقلبت النيران بإذن الله تعالى روضةً غناءً، يغلب عليها البرد، فاصطكت أسنان إبراهيم من البرد (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين).

فنظر نمرود وأصحابه، من بعيد إلى هذه المعجزة متحيرين!! وفلتت من لسان نمرود كلمةٌ، ما أراد أن يقولها.. ولكنها في غمرة التعجب، أخذت مكانها في الفضاء، قال: من اتخّذ إلهاً، فليتخذ مثل إله إبراهيم! لكن أحد المتملقين أراد تدارك الأمر، ليقربه إلى نمرود زلفى.. فقال: إني عزمت على النار أن لا تحرقه. فتطاير شررٌ من النار إلى ذلك المتزلّف.. حتى أبان كذبه: فإن من لا يقدر على أن يرد الشرر عن نفسه، كيف يتمكن أن يعزم على النار أن لا تحرق أحداً؟

ونظر نمرود إلى آزر، عم إبراهيم.. وقال: يا آزر، ما أكرم ابنك على ربه؟ ثم خرج إبراهيم من النار، وجاء إلى نمرود، ليدعوه إلى الله من جديد.

ــ 12 ــ

قال نمرود: يا إبراهيم، من ربك؟

(قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت).

(قال أنا أحيي وأميت).

قال إبراهيم: كيف تُحيي وتُميت؟

قال نمرود: اطلب رجلين ممن وجب عليهم القتل، فأطلق واحداً، وأقتل واحداً، فأكون قد أمتّ وأحييت.

وكان هذا الكلام من (نمرود) خطأً، إذ معنى كلام إبراهيم (عليه السلام) أن الله يعطي الحياة، ويقبض الأرواح. أما كلام نمرود أنه يطلق سراح الجاني، فليس هذا إحياءً..

فقال له إبراهيم: إن كنت صادقاً، فأحْي الذي قتلته.. لكن نمرود لم يحر جواباً.

ثم أن إبراهيم أعرض عن مقالة نمرود وأراد أن يلزمه بحجةٍ أخرى.. فقال: دع عن هذا (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من الغرب).. فإن كلّ يوم صباحاً، تطلع الشمس من المشرق، وذلك من صنع الله تعالى.. فإن كنت أنت إلهاً، فاعكس الأمر، وائتِ بالشمس من طرف المغرب. (فبهت الذي كفر) وانقطع نمرود عن الحجة، فلم يتمكن أن يجيب إبراهيم. وظهر على الكل أن نمرود كاذبٌ في دعواه الألوهية.

ــ 13 ــ

وذات يوم مر إبراهيم على ساحل البحر، فرأى جيفةً على الساحل: بعضها في الماء، وقد اجتمع عليه بعض الأسماك تأكله.. وبعضها في البر، وقد اجتمع عليه بعض السباع تأكله. عند ذاك تفكّر إبراهيم في كيفية إعادة الأموات، يوم القيامة. فطلب من الله، أن يريه إحياء الأموات، حتى يصير علمه عياناً.

فقال: (رب أرني كيف تحيي الموتى)؟

(قال) الله تعالى: (أو لم تؤمن)؟

(قال) إبراهيم: (بلى) إني مؤمن (ولكن ليطمئن قلبي).

(قال) الله تعالى: (فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم).

فأخذ إبراهيم الديك.. والحمامة.. والطاووس.. والغراب.. فذبحهن، وقطّعهن، وخلطهنّ، ثم جعل على كلّ جبل من الجبال التي حوله ــ وكانت الجبال عشرة ــ جزءاً من تلك الأجزاء المخلوطة، وجعل مناقير هذه الطيور الأربعة بين أصابعه. ثم دعا الطيور بأسمائهن ــ ووضع عنده ماءاً وحبّاً ــ فتطايرت تلك الأجزاء، وانضمّت بعضها إلى بعض، حتى كملت الأبدان وجاء كل بدنٍ حتى لحق برأسه ومنقاره، فخلّى إبراهيم (عليه السلام) سبيلهنّ، فطرن، ثم وقعن، فشربن من ذلك الماء والتقطن من ذلك الحب، وشكَرن إبراهيم..

نوح (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

كان ــ في سالف الزمان ــ قوم مؤمنون، يعبدون الله وحده ويعتقدون بالمعاد، ويفعلون الخيرات، فمات أولئك القوم، فحزن عليهم الناس لصلاحهم وأخلاقهم. فعمل بعض تماثيل أولئك، وكانوا يسمّون بهذه الأسماء: ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر..

وأنس الناس بهذه التماثيل، وجعلوها رمزاً لأولئك النفر الصلحاء الذين ماتوا منهم. وكان أهل المدينة يعظّمون هذه الصّور، قصداً إلى تعظيم أولئك الأموات.

مضى الصيف، وجاء الشتاء، فأدخلوا الصّور في بيوتهم. ومضى زمان.. وزمان.. حتى مات الآباء وكبر الأبناء، فجعلوا يضيفون في احترام هذه التماثيل، ويخضعون أمامها. وأخذت التماثيل من نفوس أولئك القوم مأخذاً عظيماً. وإذا بالجيل الثاني، شرعوا يعبدون الصور.. ويقولون إنها آلهةٌ، يجب السجود لها، والخضوع أمامها. فعبدوها، وضلّ منهم خلق كثير.

ــ 2 ــ

وحينذاك، بعث الله إلى أولئك القوم نوحاً (عليه السلام) ليرشدهم إلى الطريق.. وينهاهم عن عبادة الأصنام.. ويهديم إلى عبادة الله تعالى.

فجاء نوح إلى القوم.. (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره) فكذّبوه، ولم يقبلوا منه، فأنذرهم من عذاب الله تعالى.

قال: (إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم).

(قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

(قال يا قوم ليس بي ضلالةُ ولكني رسول من ربّ العالمين أبلّغكم رسالات ربّي وانصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون). فتعجّب القوم من مقالة نوح.. وجعلوا يقولون: أنت بشر مثلنا، فكيف تكون رسولاً من عند الله؟ وإن الذين اتبعوك هم جماعة من الأراذل والسفلة.. ثمّ لا فضل لكم علينا، فلستم أكثر منّا مالاً أو جاهاً.. وإنا نظنّ إنكم كاذبون في هذه الادعاءات.. وقال بعض القوم لبعض: (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم إن هو إلا رجل به جنّة)

وشجّع بعض القوم بعضاً، في عبادة أصنامهم (وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً).

ولما طال حوارهم وجدالهم، قال نوح: (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم)؟ وأخذ نوح (عليه السلام) جانب اللين واللّطف، ولكن القوم لم يزيدوا إلا عناداً.

ــ 3 ــ

ولكن نوحاً (عليه السلام) لم ييأس منهم، بل كان يأتيهم كل صباح ومساء، ويدعوهم وينذرهم بلطف ولين.. وكان القوم إذا جاءهم نوح للدعوة (جعلوا أصابعهم في آذانهم) حتى لا يسمعوا كلامه (واستغشوا ثيابهم) تغطّوا بها حتى لا يروه. وكثيراً ما هاجموه، وضربوه حتى يغشى عليه! لكنّ نوحاً النبي العظيم العطوف الحليم، كان إذا أفاق يقول: اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون.

وفي مرات أنهكوه ضرباً وصفعاً، حتى جرت الدماء عن مسامعه الكريمة، وهو مع ذلك كلّه كان يلطف بهم، ويدعوهم إلى الله تعالى، فكانوا يقولون: لم (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا)؟

حتى علم أنه لا يفيدهم النصح، فتوجّه إلى الله تعالى، ضارعاً، وبيّن كيفيّة ردّهم إياه (قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً)، (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً).

(ثم إني دعوتهم جهاراً)، (ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً)، (يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً).

ــ 4 ــ

واختلق بعض أولئك الكفّار عذراً تافها.. فقالوا: (أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون)؟ فإن أردت هدايتنا، وإعزازنا لك، فاطرد هؤلاء الأرذلين الذين آمنوا بك عن حوزتك.. فإنّا لا نستطيع أن نقرن بهؤلاء فكيف نستجيب لدين يستوي فيه الشريف والوضيع، والكبير والصغير؟

فأجابهم نوح (عليه السلام)، بلهجة كلّها حنان وتذكير: (قال وما علمي بما كانوا يعملون)؟ (إن حسابهم إلا على ربّي لو تشعرون)، (وما أنا بطارد المؤمنين)! (وما أنا بطارد الذين آمنوا) وكيف أطرد جماعة آمنوا بي، وآزروني وساعدوني على نشر الدعوة؟ (ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون)؟ (إن أنا إلا نذير مبين)

أنذر الناس على حدّ سواء، من غير فرق بين الشريف والوضيع، والغنيّ والفقير، والكبير والصغير.

ولما انقطع القوم عن الاحتجاج.. ولم يتمكّنوا من رد الأدلة التي ذكرها نوح (عليه السلام)، أخذوا يهدّدونه، بالرجم بالحجارة (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين).

ــ 5 ــ

وقد علم نوح (عليه السلام) أنهم لا يقبلون منطقاً، ولا يهتدون، فضرع إلى الله تعالى، في أن ينجّيه من هؤلاء المعاندين (قال ربّ إن قومي كذّبون)، (فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين).

وحيث كان نوح يخوّف قومه من عذاب الله، إن أصرّوا على الكفر.. قال بعضهم، استهزاءً: إلى متى تهدّدنا بعذاب الله؟ (فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

فأجابهم نوح: إن هذا الأمر ليس بيدي.. و(إنما يأتيكم به الله إن شاء).

ثم توجه إليهم في تحسّر، وقال: (لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم..).

وعند ذاك توقّع النّصر من الله تعالى.. وانتظر الوحي ليعلم أنّه ما ينبغي أن يصنع بهؤلاء القوم؟ فأوحى إليه الله تعالى: (إنّه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون).

ــ 6 ــ

وإذ تمّت الحجة.. وانقطعت الأعذار، وطالت الدعوة ما يقرب من عشرة قرون، يئس نوح منهم يأساً باتّاً، وأشفق على أولادهم وأحفادهم أن يأخذوا طريقة الآباء في الكفر والإلحاد. فدعا إلى الله تعالى، قائلاً: (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً).

وحينئذ أمره الله تعالى أن يغرس النخل فإذا أثمر نزل عليهم العذاب. وقد كان من مقتضى عدل الله تعالى أن لا يعذّب طفلاً صغيراً بذنوب الآباء.. فعقّم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يولد لهم مولود ولم يبق لهم طفل غير مكلّف.

وفي تلك المدّة شرع نوح في غرس النخل، فكان القوم يمرّون به ويسخرون منه، ويستهزئون به، قائلين: انّه شيخٌ قد أتى عليه تسعمائة سنة، وبعد يغرس النخل! وكانوا يرمونه بالحجارة..

ولما بلغ النخل، وانقضت خمسون سنة، أمر نوحٌ بقطعه.. فقالوا: إن هذا الشيخ قد خرف.. وبلغ منه الكبر مبلغه! مرّة يقول: أنا رسول.. ومرّة يغرس النخل.. ومرّة يأمر بقطعة؟

ــ 7 ــ

ولمّا اكتمل الأمر وصارت المدّة ألف سنة إلا خمسين عاما، أوحى الله إليه بصنع السفينة (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا). فأخذ نوح (عليه السلام) يصنع الفلك، وجبرئيل يعلّمه كيف يصنعها.. وإذ كان من الواجب صنع سفينة تسع ملايين المخلوقات، أوحى الله إليه: أن يكون طول السفينة ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ثمانمائة ذراع، وارتفاعها ثمانين ذراعاً، فيكون الحجم سبعة ملايين، وستمائة وثمانين ألف ذراع.

لكنّ نوحاً (عليه السلام) سأل الله تعالى أن يعينه على صنع مثل هذه السفينة الكبيرة، قال: يا ربّ من يعينني على اتخاذها؟ فأوحى الله إليه: ناد في قومك، من أعانني عليها، ونجر منها شيئاً صار ما ينجره ذهباً وفضة. فأعانوه في صُنعها. وكان محلّ صنع السفينة صحراء وسيعة (ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملا من قومه سخروا منه)!

فكان بعضهم يقول: أيها النبي، لم عدلت عن رسالتك إلى النّجارة؟

وبعضهم كان يقول: يا نوح صرت نجّاراً بعد النبوّة؟!

وبعضهم كان يقول: السفينة تصنع للبحر وأنت تصنعها في البر؟!

وكانوا يتضاحكون! ويتعجبون! ويرمون نوحاً بالجنون والسّفه.

ويجيبهم نوح (عليه السلام) في تأدّب ولين: (إن تسخَروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذابٌ مقيم). واشتغل بالعمل جادّاً، حتى تمّ صنع السفينة.

ــ 8 ــ

ثم أمر الله سبحانه نوحاً أن يحمل في السفينة الذي آمنوا معه.. ومِن كل ذي روح زوجين اثنين، لئلا ينقرض نسل الحيوان.. وقد كان نوح هيّأ لكلّ صنف من أصناف الحيوان، موضعاً في السفينة، ثم حمل من جميع الأصناف التي تغرق في الماء، ولا يتمكّن أن يعيش فيه.

فحمل من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الغزال اثنين، ومن اليحمور اثنين، ومن البغل اثنين، ومن الفرس اثنين، ومن الأسد اثنين، ومن النمر اثنين، ومن الفيل اثنين، ومن الكلب اثنين، ومن الدّب اثنين.. وهكذا..

وحمل من الحمام اثنين، ومن العصفور اثنين، ومن الصعوة اثنين، ومن الغراب اثنين، ومن الكركي اثنين، ومن البلبل اثنين، ومن الببغاء اثنين، ومن النّسر اثنين ومن الهدهد اثنين، ومن الفاختة اثنين، ومن الطاووس اثنين.. وهكذا..

وحمل من الجعلان اثنين، ومن اليراعة اثنين، ومن اليربوع اثنين، ومن السنور اثنين، ومن الخنافس اثنين.. وهكذا..

وبالجملة فقد صنع في السفينة اكبر حديقة حيوانية شاهدها العلم. وجمع في السفينة لكل حيوانٍ من طعامه الخاصّ مبلغاً كثيراً. هكذا شاء الله.. ونفّذ مشيئته نوح (عليه السلام).

وحمل الذين آمنوا به، وكان عددهم ثمانين شخصاً.. (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربّي لغفور رحيم).

ــ 9 ــ

وكان لنوح (عليه السلام) زوجتان، إحداهما مؤمنة، والثانية كافرة.. وكانت الزوجة الكافرة تؤذي نوحاً، وتقول للناس: إن زوجي مجنون وإذا آمن أحد، أخبرت الكفّار.

وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى هذه الزوجة، حيث يقول: (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

ولما ركب نوح (عليه السلام) السفينة، اركب معه الزوجة المؤمنة، وترك الكافرة، فغرقت مع سائر الكفار.

ــ 10 ــ

ولما ركب نوح والّذين آمنوا معه السفينة، وأركب جميع الحيوانات، كلاً في موضعه.. كسفت الشمس، وأخذت السماء تمطر مطراً غزيراً، وطفقت عيون الأرض تنبع بالمياه الكثيرة (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب انصباباً شديداً لا ينقطع (وفجّرنا الأرض عيوناً) حتى جرت المياه على وجه الأرض (فالتقى الماء) ماء الأرض وماء السماء، حتى صار العالم كبحر كبير.

واستمرّ هطول الأمطار ونبع العيون أربعين يوماً. وفي تلك الأثناء، كانت السفينة تجري فوق ظهر الماء حسب هبوب الرياح، وإذا بنوح (عليه السلام) يشرف من السفينة فيرى ولده، يقع مرّة، ويقوم أخرى، يريد الفرار من الغرق، فناداه: (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين). لكن الابن العاق أبى قبول نصيحة والده الشفيق، وأجاب نوحاً (قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء).

فنظر إليه نوح نظر مشفقٍ، وقال: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم). ولكنّ عناد الولد، وإصراره على الكفر حال بينه وبين قبول نصح أبيه، فلم يركب السفينة، وكانت السفينة حينذاك (تجري في موج كالجبال).

وبعد برهة من هذه المحاورة (حال بينهما) بين نوح وولده (الموج فكان من المغرقين). وأخذت نوح (عليه السلام) الرقة على ولده، فتضرّع إلى الله تعالى في نجاة ابنه الغريق، فإن الله تعالى كان قد وعده بنجاة أهله، فقال نوح (عليه السلام): (ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين).

ولكنّ الله تعالى، كان قد وعد نجاة أهل نوح الذين كانوا من الصالحين، ولذا أجابه: (يا نوح إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح).

بعدما غمر الماء جميع الأرض، وهلك كل كافر (قيل يا أرض ابلعي ماءك)! فغاض الماء الذي نبع من الأرض، وأوحى إلى السماء: (يا سماء اقلعي) وكُفي عن الانصباب والمطر، فانقطع المطر (واستوت) السفينة (على الجودي) وهو جبل، أرست السفينة عليه، وأخذت المياه التي بقيت على الأرض من الأمطار، تتسرّب إلى البحار.

وأوحى إلى نوح (عليه السلام): (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أممٍ ممن معك) فنزل نوح من السفينة، ونزل المؤمنون الذين كانوا معه، وبنوا مدينةً، وغرسوا الأشجار، وأطلقوا الحيوانات التي كانت معهم.

وابتدأت العمارة في الأرض، وأخذ الناس يتوالدون ويتناسلون، وأوحى الله تعالى إلى نوح: يا نوح، إنني خلقت خلقي لعبادتي، وأمرتهم بطاعتي، فقد عصوني، وعبدوا غيري واستوجبوا بذلك غضبي، فغرّقتهم.

موسى (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

كان يوسف (عليه السلام) ملكاً في مصر، وقد جمع بين النبوّة، والملوكية، فكان ينظّم أمر الناس على وفق العدل والحكمة.

وحين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب، وهم ثمانون رجلاً.. فقال لهم: إنّ هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويكون الملك للكافرين ويصبح المؤمن في هذه البلاد ذليلاً بأيديهم.. ويسومونكم سوء العذاب. وإنما ينجّيكم الله من أيديهم، برجل من ولد (لاوي) بن (يعقوب) اسمه: موسى بن عمران.

وبعدما أخبر يوسف بني إسرائيل بهذا الخبر، حزنوا لما يتوقعونه من البلاء، وفرحوا بما ينتظرونه من الفرج على يد نبيّ من بني أبيهم.. ومات يوسف (عليه السلام).

فملك بعده رجلاً لا يسير سيرة يوسف في كل كبير وصغير.. وكيف يعدل بيوسف غيره: وهو نبيّ من عند الله تعالى لا يأمر إلا بالخير، ولا يفعل إلا الخير. ثم مات الملك..وملك بعده رجل آخر، وكان عاتياً فاجراً.. وهكذا أقام بنو إسرائيل، بعد وفاة يوسف، وقد كثروا، وانتشروا، متمسّكين بدين آبائهم يوسف، ويعقوب، وإسحاق وإبراهيم (عليهم السلام).

حتى زمان الملك فرعون.. وهذا الملك الطاغي فتح لمصر صفحة جديدة من الطغيان والإرهاب، وخصّص لبني إسرائيل ألواناً من العذاب والنكال.

كان بنو إسرائيل ينتظرون مقدم موسى (عليه السلام) لينجّيهم من طغيان فرعون وقسوته. وكان كلّما ولد لأحدهم مولود سموه عمراناً.. فإذا كبر عمران، سمّى ولده موسى رجاءً لأن يكون هو الذي وعد به يوسف (عليه السلام) حين حضرته الوفاة ولكن خابت الظنون، فلم يكن موسى الموعود أحدهم.

واغتنم بعض متطلبي الرئاسة هذا الوعد، فجعل من نفسه موسى النبيّ! حتى ادّعى خمسون من بني إسرائيل انهم هم الذين وعدهم يوسف، وكلّهم يدّعي أنه ينزل عليه الوحي، وانه هو مخلص بني إسرائيل، كذباً وافتراءً!

ولم يزل فرعون يسمع هذه الأخبار عن بني إسرائيل وكان قد علم أن بني إسرائيل يرجفون به ويطلبون هذا الغلام. فاستشار كهنته وسحرته في هذا الأمر المهم.

قالوا: إن المسموع صحيح، وهلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام.

وحدّدوا وقت ولادة الغلام بعامٍ مخصوص. وهنا ثار ثائر فرعون، وجعل يخبط خبط العشواء للظفر بهذا الذي سيولد، مما يكون بيده هلاكه وتقضي أيامه!! أما كيف يصنع؟ وكيف يظفر على هذا المولود فهو سر مغلق، لا تساعده حيلته على ذلك!!

وأخيراً ارتأى أبشع الآراء، وقرّر تنفيذه بكل صرامةٍ وقسوةٍ. جعل القوابل على النساء، في ذلك العام الذي أخبر بولادة موسى فيه وأمر بأن يذبح كل غلام يولد في ذلك العام، ليستريح من موسى من أوّل أمره.

وعجّ بنو إسرائيل من هذا الحكم الإجراميّ واجتمع بعضهم إلى بعض لحلّ المشكلة. وكان فيهم عمران والد النبي موسى (عليه السلام).

فقال بعضهم: إذا ذبح الغلمان واستحيى النساء هلكنا ولم يبق لنا نسبٌ، فمن الرأي أن لا ينكح رجالنا نساءنا حتى لا يولد لنا مولود.. وبذلك ننقرض جميعاً، أما أن تبقى البنات ويذبح الأولاد فمعنى ذلك: أن نقدّم بناتنا إلى آل فرعون غنيمة باردة. لكنّ عمران أبى هذا الرأي.. وقال: أمر الله واقعٌ ولو كره المشركون.

وقد أصرّ فرعون في تعذيب بني إسرائيل، وقتل أطفالهم، حتى قتل من أطفال بني إسرائيل نيفاً وعشرين ألف مولود. بالإضافة إلى ما كان يأمر به من تعذيب الرجال والنساء. وقد كان من صنوف تعذيبه أن أمر بتقييد أرجلهم لئلا يفرّوا.. ثم كان يستعملهم في البناء، فكانوا ينقلون الطين على السلالم إلى السطوح، بأرجل مقيدة.. وكثيراً ما كانوا يقعون من السلّم فيموتون أو يزمنون، أو يصابون بصنوف الرض والكسر والتشويه.

وفي مثل هذا الوقت.. وفي هذا الجوّ الخانق تعذيباً وإرهاباً.. حملت أمّ موسى.. فوكل بها فرعون قابلةً تترقّب ولادتها، فإن كان الولد ذكراً ذبحه وإن كانت أُنثى استحياها.. وألحت القابلة في حراستها، فإذا قامت الأم قامت القابلة في إثرها، وإذا جلست جلست القابلة إزاءها لئلا يفوتها زمنٌ من حالها.

لكنّ الله تعالى شاء أن تنقلب القابلة عن هذه الصرامة، فأحبّت أُمّ موسى حباً كبيراً، لما رأت فيها من الأخلاق الفاضلة والأدب الرفيع. أما الأُمّ فقد أخذها الخوف، وظهر على ملامحها فشحب وجهها ومال إلى الاصفرار.

قالت القابلة يوماً لأُمّ موسى: يا بنية، ما لك تصفرّين وتذوين؟

فأجابت الأمّ قائلة: لا تلوميني، كيف لا أخاف انّه إذا ولدت أخذ الولد وذبح!

لكن القابلة سلّتها، وقالت: لا تحزني، فإني سوف اكتم عليك.

أما الأم فقد ظلّت في شك من هذا الوعد، إلى أن ولدت بموسى (عليه السلام)، وكانت القابلة حاضرة حين الولادة، فالتفتت إليها أُمّ موسى، وملء نظرها استعطاف واستيفاء للوعد.. وفوّضت أمرها إلى الله قائلةً: ما شاء الله، وانتظرت أمر القابلة.

ولما أن سمع الناس ولولة الطلق، ذهبوا يخبرون الحرس الملكي، الذين وكّلوا بذبح الأطفال، فحضروا باب البيت، وتحيّرت القابلة في الأمر، ماذا تجيب الحرس؟ وكيف تنقض عهداً عهدته إلى الأمّ المحببة إليها؟

لكنها أخيراً، توجّهت إلى الأمّ قائلة: إني سوف اكتم عليك، كما وعدتك فلا تخافي، وحملت الأم والولد فأدخلتها المخدع، وأصلحت بعض أمرها، ثم خرجت إلى الحرس قائلة: انصرفوا، فانّه خرج دم منقطع. فانصرف الحرس، واطمأنت الأمّ، وجزت القابلة خيراً.

وهكذا شاء الله تعالى أن يخلّص نبيّه العظيم موسى (عليه السلام) من براثن فرعون المجرم، وحرسه القساة (وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه) فأرضعت الأمّ ولدها الحبيب، بكلّ لهفةٍ وحنان. لكنّها خافت أن يبكي موسى، فيعرف الجيران خبرها، فتقع فيما فرّت منه.

فألهمها الله تعالى أن (..إذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني..) فصنعت أُمّ موسى تابوتاً من خشب، ووضعت ابنها الحبيب فيه، وطبقت التابوت بحيث لا يدخل فيه الماء وذهبت ليلاً إلى الماء. ثم طرحت التابوت في النيل، وقلبها ممتلئ كآبةً وحزناً.

لكن الماء أبى أن يفرّق بين الوالدة الحزينة والولد الحبيب، فجعلت الأمواج تدفع التابوت إلى الجرف.. والوالدة تدفع التابوت إلى الغمر، خوفاً وحزناً! إلى أن ضربت الريح التابوت نحو مجرى الماء، فانطلق به.

لكن الأم كيف تصبر؟ فهمّت أن تصيح لوعةً وشجناً، فربط الله على قلبها، وحفظها (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها). ووعد الله الأم أن يرد الولد إليها، وبشّرها بأن يجعله من المرسلين (إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

التابوت ينطلق في الماء، حسب لهب الريح ومجرى الماء.. والولد يكلأه الله بلطفه ورعايته في جوف الصندوق.. والأم أخذت ترجع إلى البيت بقلبٍ والهٍ وأن لمس شيئاً من الهدوء والاطمئنان تصديقاً بوعد الله.

فما هي العاقبة؟

كانت لفرعون امرأةً صالحة تسمى (آسية) من قبيلة بني إسرائيل، وكانت تخالف زوجها في العقيدة والرأي، لكنّها كانت تسرّ معتقدها، خوفاً من سطوة فرعون الجبار الطاغي.

وأتت أيام الربيع فقالت آسية لفرعون: هذه أيام الربيع فأمر لي بضرب قبّة على النيل لكي أتنزّه في هذه الأيام الجميلة. فأمر فرعون بضرب قبةٍ لها على الشطّ، وخرجت هي مع لمّةٍ من جواريها.

وبينما الجواري على الماء.. إذ رأين الأمواج تعلو وتهبط بشيء، ورأت آسية الصندوق في وسط الغمر، فقالت للجواري: ما ترين؟ قلن: يا سيدتنا، إنا لنرى شيئاً كما ترين.. وأتى الماء بالصندوق إلى القرب منهن، فاندفعن في الماء حتى أخذنه، وقد كاد أن ينفلت من أيديهن.

فتحت آسية الصندوق، وإذا فيه طفل جميل كفلقة القمر، فأوقع الله في قلبها محبة منه (ألقيت عليك محبة مني) ووضعت الولد في حجرها، وتفكّرت في أن تتخذه ابناً لها.. فأعلمت الجواري، وقالت: هذا ابني.. وأقرّتها الجواري بهذا التبنّي الميمون.

فقلن: أي والله، أي سيّدتنا، ما لك ولدٌ ولا للملك ــ يقصدن فرعون ــ فاتّخذيه ولداً.

ولكن.. يا ترى، هل يرضى فرعون بذلك؟

قامت آسية إلى فرعون.. فقالت له: إني أصبت غلاماً طيّباً حلواً، نتّخذه ولداً، فيكون قرّة عين لي ولك، فلا تقتله.

قال فرعون: ومن أين هذا الغلام؟

قالت آسية: لا والله ما أدري، إلا أن الماء جاء به..

لكن فرعون أبى أن يقبل قولها.. وهمّ أن يقتله، لما توجس خيفة، من أن يكون الولد من بني إسرائيل.. فألحّت آسية في الإصرار، وشفعت شمائل الولد الحلوة، في قبول فرعون تبنّي الولد.. وسمّاه (موسى) لأنه التقط من الماء.

ولما سمع الناس أن الملك قد تبنّى ابناً.. أرسل كبراء الناس نساءهم إلى آسية لتكون لموسى عليه السلام ظئراً ومربية.. وكلما تقدّمت النساء إلى موسى، لتلقمه ثديها، أعرض عن الثدي، فتحيّرت آسية في أمره.. ماذا تصنع به؟

ثم أمرت جواريها أن يطلبن كلّ امرأة مرضعة أو ذات لبن، ولا يحقرن أحداً كيف ما كان شأنها ومنزلتها فلعل موسى يقبل إحداهن.. أما أم موسى فقد كانت تترقب الأخبار عن ولدها. إذ أنها لم تعلم ما صنع به في النيل! لكنّها لم تظفر بخبر صحيح عن ولدها..

فقالت لابنتها ــ أخت موسى ــ : قصيه وانظري أترين لأخيك من أثر.. فانطلقت البنت تفحص عن موسى الرضيع هنا وهناك، لكنّها لم تقع على خبر؟!

وانتهى بها السير إلى باب دار الملك (فرعون) ودخلت الدار فيمن دخل.. وإذا بها ترى موسى أخاها في حضن آسية.. وقد التمست النساء لإرضاعه، لكنّه يأبى عن قبول لبنهن، وذلك بمشيئة من الله تعالى (وحرّمنا عليه المراضع من قبل).

توجّهت البنت الزكيّة إلى امرأة فرعون قائلة: قد بلغني أنكم تطلبون ظئراً.. وهنا امرأة صالحة تأخذ ولدكم، وتكفله لكم.

قالت بعض النساء: يظهر أن هذه البنت تعرف أم الغلام وإلا فمن أين لها بالظئر!

أجابت البنت الفطنة: أردت نصحكم.. فإني اعرف امرأة مرضعةً، وإن لم تحبوا أن آتي بها فلا ضير.

لكن آسية أمرت بأن تأتي بالمرضعة، فلعل موسى يقبل ثديها. فركضت البنت إلى أمّها تبشرها بالخبر.. وتبعتها الأمّ إلى دار فرعون. فلمّا دخلت الدار..

قالت آسية: ممن أنت؟

قالت الأم: من بني إسرائيل.

قالت آسية: اذهبي يا بنيّة، فليس لنا فيك حاجة.

توجهت النساء إلى آسية قائلات: انظري يا آسية هل يقبل الطفل الثدي أو لا يقبل؟

فقالت امرأة فرعون: أرأيتم لو قبل.. هل يرضى فرعون أن يكون الغلام من بني إسرائيل والمرأة ــ تعني الظئر ــ من بني إسرائيل؟ إن فرعون لا يرضى بذلك أبداً.

قالت النساء: فانظري يقبل أو لا يقبل؟

وقد كانت أُمّ موسى خرجت من عند آسية عندما قالت لها اذهبي يا بنيّة.. فأرسلت آسية ــ بعض الجواري ــ عليها لترجع. فركضت أخت موسى، إلى أمّها تخبرها بالبشارة قائلة: إن امرأة الملك تدعوك.. فأتت الأم فرحة، ودخلت على آسية.

فدفعت آسية الولد إليها، والنسوة ينظرن، أخذت الأمّ ولدها، ووضعته في حجرها، ثم ألقمته ثديها، وإذا بموسى يقبل على المصّ إقبالاً عظيماً واللّبن يجري في فمه. فرحت آسية.. وفرحت النسوة.. وفرحت الأمّ فرحاً كبيراً. قامت آسية إلى فرعون، تخبره الخبر، وتستأذنه في أمر الظئر الإسرائيلية.

فقالت: إنّي قد أصبت لابني ظئراً، وقد قبل منها الرضاع.

قال فرعون: وممن هي؟

قالت آسية: من بني إسرائيل!

قال فرعون: هذا مما لا يكون أبداً: الغلام من بني إسرائيل! والظئر من بني إسرائيل!

فلم تزل آسية تلحّ عليه، وتستعطفه في أمر الغلام وتقول له: وماذا تخاف؟ إنّ الغلام ابنك وينشأ في حجرك.. فهل تراه يبارزك ويخاصمك؟ هذا مما لا يكون.

حتى قبل فرعون، ورضي بالظئر الإسرائيلي (فرددناه إلى أمّه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون).

فنشأ موسى في حضن فرعون وداره، في عز واحترام، بينما كان فرعون وجلاوزته يقتلون أولاد بني إسرائيل، خوفاً من أن ينشأ فيهم من أخبر المنجّمون بأنّ زوال ملك فرعون بيده.

وهكذا شاء الله أن يربي نبيه العظيم، في حضن أعدى أعدائه (فالتقطته آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً).

وقد كتمت القابلة.. والأُمّ.. والأخت.. خبر موسى، ومضى زمانٌ، وأتى زمانٌ، واستغنى موسى عن الرضاع، وماتت الأم، وماتت القابلة، وبقي موسى في حجر فرعون، يكلأه الله برعايته ويربيه فرعون ينظر إليه نظر الأب إلى ابنه.

وفي ذات يوم حدث أن موسى ــ وهو غلام صغير يدرج ــ عطس عطسةً فقال: الحمد لله رب العالمين.

فأنكر فرعون ذلك عليه، ولطمه موسى على وجهه وقال: ما الذي تقول؟ فوثب على لحية فرعون ــ وكانت طويلة ــ فقلع بعضها! فهمّ فرعون بقتله!

قالت آسية ــ متشفعةً ــ : إنه غلام حدث ما يدري ما يقول..

فقال فرعون: بلى يدري. قالت آسية: فامتحنه: ضع بين يديه تمراً وجمراً، فإن ميّز بينهما، فافعل ما تريد.

فأمر فرعون بأن يوضع إزاء موسى طبقاً من تمر وكانوناً من جمر.. فمدّ موسى يده إلى الجمر، ووضعه في فمه.. فاحترق لسانه ويده، وبكى بكاءً مراً!

فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك: إنه لا يعقل. فعفا فرعون عنه..

أمّا بنو إسرائيل، الذين كانوا تحت اضطهاد فرعون ونكاله، فقد كانوا منتظرين مقدم موسى، ولكنّهم لم يكونوا يعلمون أنّه قد ولد.. فكانوا يتذاكرون وعد يوسف (عليه السلام)، وينتظرون نبيّهم المخلّص لهم من أيدي الجبارين.. وكانوا يسأل بعضهم بعضاً عن وقت الفرج، لكن.. لم يكونوا يعرفون ذلك بالضبط.

ولما علم فرعون بإلحاحهم في طلب مخلّصهم زاد في تعذيبهم، وأمر بأن يفرّق بين رجالهم ونسائهم، كي لا يولد لهم المولود المنتظر. ومنع عن مذاكرة موسى منعاً باتاً، ولم يدر أن موسى في بيته!

وقد أثّر الضغط الشديد في بني إسرائيل، فلم يقدروا على ذكر اسم موسى إلا في ظلمات الليل، والخفايا، كي لا يرفع أمرهم إلى الطاغية فرعون. فخرجوا! ذات ليلة مقمرة إلى كبير لهم، له علم ومعرفة، يسألونه عن موعد الفرج؟

قالوا للشيخ: قد كنّا نستريح إلى أخبارك من قبل، وكانت بشائرك بالفرج تسري عنّا بعض الهموم. فإلى متى نحن في هذا البلاء؟ إن فرعون يقتل رجالنا، ويشق بطون نسائنا الحبالى، ويذبح أطفالنا. فمتى الفرج؟

قال الشيخ: إنكم لا تزالون في البلاء حتى يجيء الله تعالى بغلام من ولد لاوي بن يعقوب.. اسمه موسى بن عمران، غلامٌ طوالٌ جعدٌ. وعند ذلك يكون الفرج.

وبينما هم في الحديث، بين يأس ورجاء، إذ طلع عليهم موسى من بعيد.. وهو إذ ذاك حديث السن، وقد خرج من دار فرعون، وهم يزعمون أنه يريد النزهة. لكن موسى كان قاصداً نحو بني إسرائيل، ميمّماً وجهه شطر ذلك الاجتماع المنعقد في ظلمة الليل، وقف على القوم، فتوسّم الشيخ فيه الملامح الموعودة.

فقال: ما اسمك يرحمك الله؟

قال: موسى..

قال الشيخ: ابن من؟

قال: ابن عمران.. فانكبّ الشيخ على قدميه يقبّلهما.

وعرف بنو إسرائيل نبيّهم، فأقبلوا إليه يقبّلون يده ورجله، في فرح وغبطة ثم ودّعهم موسى قائلاً لهم: أرجو أن يعجّل الله فرجكم! وذهب إلى دار فرعون. وفي هذا الوقت علم بنو إسرائيل أن الفرج قد اقترب.. وانّه قد شبّ مخلّصهم من فرعون.

خرج موسى ذات يوم يتفرّج.. فدخل مدينة لفرعون، وبينما هو يسير، فإذا به يرى رجلين يقتتلان (هذا من شيعته) من بني إسرائيل (وهذا من عدوه) من القبط، فكان أحدهما يقول بقول موسى، وكان الآخر يقول بقول فرعون (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) قال الإسرائيلي: يا موسى نجني من هذا القبطي. فتقدم موسى إلى القبطي (فوكزه) ضربه بيده، وكانت الوكزة شديدة، لما كان لــ(موسى) من قوة وبطش (فقضى عليه) ومات القبطي في مكانه. قال موسى: هذا الاقتتال من عمل الشيطان.

فانتشر أمر موسى في الناس، وقالوا: إنه قتل رجلاً من القبط (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب). وخرج في غد ذلك اليوم يتحسّس الأخبار، فإذا به يمرّ بذلك الرجل الإسرائيلي، وهو يتقاتل مع رجل قبطي آخر.. ولما أن رأى الإسرائيلي موسى استصرخه وطلب منه العون في إنجائه من القبطي. توجه موسى إلى الإسرائيلي، وقال له: (إنك لغوي مبين) كل يوم تقاتل رجلاً؟!

لكن موسى ــ بعدما قال هذا الكلام للإسرائيلي ــ نحى نحو القبطي ليزجره وينصر الإسرائيلي (ولما أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما) زعم الإسرائيلي أن موسى يريد الانتقام منه.. فاضطرب وتوجه إلى موسى قائلاً: (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)؟! فخاف موسى أن يتبيّن أمره، ويلقى القبض عليه فهرب من محل المنازعة، واختفى.

كان خازن فرعون مؤمناً بموسى (عليه السلام) وكان قد كتم إيمانه عن فرعون.. وبعد الواقعة استشار فرعون أصحابه في أمر موسى؟ وأخيراً استقرّ رأيه على أن يقتله. لكن الله شاء أن يحفظ موسى من القتل.

فأخذ الخازن يناقش فرعون في قتل موسى وقال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)؟ لكن لم تنفع المناقشة، وصدر حكم القتل، فلم ير الخازن حلاً للمسألة إلا أن يخبر موسى بالمؤامرة لينجو بنفسه.

(وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) وسمع موسى كلام الخازن (فخرج منها خائفاً يترقّب) بغير دابّةٍ، ولا خادم ولا زادٍ متضرعاً إلى الله تعالى، قائلاً: (رب نجني من القوم الظالمين) وكان يخاف أن يلحقه الطلب!

لكن الله حفظ نبيه عن أذى فرعون وقومه، فلم يظفروا به، حتى خرج من بلادهم.. وورد إلى بلاد آخرين (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل).

سار موسى (عليه السلام).. ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى أتى إلى ارض مدين، فرفعت له من البعيد شجرةٌ، فقصدها ليستظلّ بها، ولما اقترب منها رأى تحتها بئراً (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمّةً من الناس يسقون). ونظر في ناحية، فإذا يرى جاريتين معهما غنمٌ تنتظران صدور القوم، حتى تسقيا غنمهما، من فضل ما بقي في الحوض.

فقال لهما موسى: (ما خطبكما)؟ ولماذا تنتظران؟ (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخٌ كبير). فرقّ موسى لحالهما، ودنا من البئر، وقال لمن على البئر: أستقي دلوين دلواً لكم، ودلواً لي؟ وكان الدلو كبيراً يحتاج مدُّه إلى جماعة... فقبل القوم كلامه لما رأوا فيه من المنفعة لأنفسهم، فتقدّم موسى (عليه السلام) وحده ــ وكان قويا ــ فاستقى وحده دلواً لمن على البئر ثم استقى دلواً آخر للجاريتين، وسقى أغنامهما.

(ثم تولّى إلى الظلّ فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٌ) وكان (عليه السلام) حينذاك جائعاً لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئاً! وكان قد استولى عليه الضعف، والتعب.. فقد قطع الطريق بين مصر ومدين راجلاً خائفاً، ولم يعتد ذلك من قبل حيث انه كان في ظلّ نعيمٍ في بيت الملك، مهيئاً له أفضل الأطعمة، وأحسن المراكب، وأسبغ الرفاه والأمن.

فتضرّع إلى الله تعالى، في أن يمنحه الراحة والأمن والمأكل. استجاب الله دعاء موسى (عليه السلام). فما أن رجعت المرأتان إلى داريهما ــ وكان أبوهما نبياً من أنبياء الله تعالى، واسمه: شعيب (عليه السلام) ــ حتى أخبرتاه بنبأ موسى.

إن شعيب سأل ابنتيه، قائلاً: أسرعتما الرجوع اليوم؟ وقد كانتا اعتادتا التأخر حتى يصدر الرعاء.

فقالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحيماً، فسقى لنا مع القوم، وهذا سبب مجيئنا قبل كل يوم.

فقال شعيب، لواحدة منهما: اذهبي إليه، فادعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) حتى وصلت إلى موسى (قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) فقام موسى معها، وأرادت الفتاة أن تتقدّم على موسى في المشي لتدلّه على الطريق لكن موسى أبى، وقال: بل كوني من ورائي، وأرشديني إلى الطريق بدلالة.

حتى وصل إلى دار شعيب فدخل الدار، ورحّب به شعيب، واستفسره عن قصته (فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين).

الكليم (عليه السلام) وفرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

فرّ موسى (عليه السلام)، من الطاغية فرعون من مصر، وجاء إلى مدين، ونزل ضيفاً عند النبي شعيب (عليه السلام).

فقالت إحدى بنتي شعيب: (يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين).

قال شعيب: يا بنيّة، من أين عرفت قوّته وأمانته؟

قالت: أمّا قوّته، فقد عرفته يسقي الدلو وحده، وقد كان الدلو لا يتمكن من استقائها إلا عشرة أشخاص.. وأمّا أمانته فقد عرفتها من قوله لي: تأخّري عنّي ودلّيني على الطريق، وأنتِ من خلفي.. حيث لم يرض أن يمشي وقدّامه امرأة.

قال شعيب لموسى: (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) يعني: إن صداق بنتي أن تعمل لي ثماني سنوات، أو عشر سنوات، لكنّ إضافة سنتين على ثماني سنوات تفضل منك (وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين).قال موسى في جواب شعيب: (ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ) سواء خدمتك ثماني سنوات، أم عشر سنوات. فلا لوم بعد ذلك علي. ثم قال موسى: (والله على ما نقول وكيل).

وقبل شعيب الكلام، وزوّج موسى بإحدى ابنتيه، وهي التي ذهبت إلى موسى لتدعوه إلى دار أبيها، وقالت لأبيها: (يا أبت استأجره).

أما موسى فقد قرّت عيناه بالزواج من بنت شعيب.. وخدم شعيباً عشر سنوات تبرّعاً وفضلاً.

ــ 2 ــ

(فلمّا قضى موسى الأجل) وتمّت خدمة عشر سنين، قال لشعيب: لا بدّ لي أن ارجع إلى وطني وأمّي وأهل بيتي، وطلب من شعيب مؤونة.. فأجازه شعيب بالرجوع، وزوّده بعددٍ من الأغنام، كي يعيش هو وزوجته بصوفها ولبنها ولحمها ونتاجها. ثم سلّم إليه عصىً كانت لإبراهيم الخليل (عليه السلام).

فتوادعا وخرج موسى بأهله من دار شعيب يسوق غنمه أمامه، ميَمّماً شطر مصر وطنه ووطن بني إسرائيل قرابته. وكانا يسيران بأغنامهما ليلاً ونهاراً.. حتّى إذا أظلم ليلٌ من الليالي، وصارا في مفازةٍ وسيعة أصابهم بردٌ شديدٌ وريحٌ وظلمةٌ، وأخطأ الطريق، فلم يعرف الجادة.

فإذا به يرى ناراً من بعيد (آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر) عن الطريق، فلعلّ عند النار أناس استرشدهم الطريق (أو جذوةٌ من النار لعلّكم تصطلون).

فأقبل نحو النار.. فإذا به يرى شجرةً تلتهب ناراً.. فلما ذهب إليها ليقتبس من النار أهوت النار نحوه، ففزع منها وعدا متقهقراً. ورجعت النار إلى الشجرة! فرجع إليها مرّة ثانية.. فأهوت نحوه! فعدا متقهقرا، وتركها. فالتفت، فرآها قد رجعت إلى الشجرة.. فرجع إليها ثالثةً، فأهوتْ إليه، ففرّ فزعاً ولم يرجع.

وهنا (نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين).

ــ 3 ــ

تحيّر موسى في الأمر، ما هذه الشجرة؟ وما هذه النار؟ وما معنى هذا النداء؟! لكنّه جمع قواه، قائلاً: ما الدليل على ذلك، أي على أن الصوت من قبل الله تعالى وأنّه هو الذي خلق الصوت في الشجرة، وكلّم موسى؟!

لكنّ صوتاً ثانياً من الشجرة شقّ الفضاء ووصل إلى مسامع موسى: ما في يمينك يا موسى؟

أجاب موسى قائلاً: (هي عصاي أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى).

(قال ألقِها يا موسى)! وكان ذلك ليرى موسى الدليل على أن المتكلّم هو الله تعالى.

فألقى موسى عصاه، وإذا به يراها انقلبت حيّة عظيمةً تتحرّك!! (فلما رآها تهتزّ كأنّها جان ولّى مدبراً) من الخوف والدهشة، (ولم يعقب) لم يرجع ليأخذ الحيّة! وازدادت حيرته ووجب قلبه: أترى ما هذه الحيّة؟!

وهناك نودي من جانب الشجرة: (يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين) فرجع نحو الحيّة، وإذا به يراها كأنها جذعٌ، يخرج من فمها لهيب النار، ولها صريرٌ! وكان موسى يرتعد من الخوف، وركبتاه تصطكان، قال موسى: إلهي هذا الكلام الذي اسمع كلامك؟ قال: نعم.. فلا تخف.

وهنا اطمأنّ قلب موسى، ووضع رجله على ذنب الحيّة، ثم تناول لحييها، وإذا به يرى يده في شعبة العصا، قد عادت كما كانت.

ــ 4 ــ

ومرّة أخرى، نودي من الشجرة: (اسلك يدك في جيبك) أي أدخلها في جيبك (تخرج بيضاء من غير سوء) أي إذا أخرجتها، رأيتها كالشمس الطالعة تنير، من دون أن يكون ذلك أثراً للبرص ونحوه. فأدخل موسى يده في جيبه، ولما أخرجها أضاءت له الدنيا.

فناداه الله تعالى: (فذانك) العصا واليد (برهانان) دليلان على نبوّتك (من ربك) فــ(اذهب إلى فرعون وملائه) وادعُهم إلى الله تعالى (إنّهم كانوا قوماً فاسقين). وهكذا أعطى الله تعالى لموسى دليلين عظيمين على كونه مرسلاً من قبل الله تعالى:

أحدهما: إنّه كان كلما ألقى عصاه انقلبت حيّة عظيمة، فإذا أخذها رجعت إلى حالتها الأولى، وصارت عصىً كما كانت.

والثاني: إنه كلّما أدخل يده في جيبه، وأخرجها، ظهرت مشرقةً كالشّمس الضاحية، تنير الفضاء، فإذا أدخلها في جيبه ثانية وأخرجها عادت كما كانت.

لكن موسى (عليه السلام)، خاف من الذهاب إلى فرعون لأنّه قتل من قوم فرعون رجلاً، فمن الممكن أن يقتله فرعون، كما كان قد عزم على ذلك قبل أن يفرّ موسى من مصر بالإضافة إلى أنّ موسى لم يكن منطقياً، فلعلّ فرعون يسخر من كلامه.

أما المعجزتان، فقد كانتا دليل النبوّة، وكبرياء فرعون تمنع عن الإذعان، فكيف يذهب موسى إليه والحال هذه؟ ولذا توجّه إلى الله متضرّعاً: (قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) قصاصاً عن قتلي لأحدهم! (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً) أي معيناً على تبليغ الرسالة (يصدقني إني أخاف أن يكذبون).

وأجاب الله دعاء موسى (قال سنشدّ عضدك بأخيك) وهذا استجابةً لدعائه الأول.

ــ 5 ــ

جاء موسى وأخذ معه أخاه هارون ليذهبا إلى فرعون، ويدعواه إلى التوحيد، وأوصاهما الله تعالى بأن يقولا لفرعون قولاً ليناً، لعلّه يتذكّر أو يخشى.

ولما أتى موسى باب قصر فرعون، استأذن الحاجب للدخول؟ فلم يأذن له، وكان ذلك بإيعاز من فرعون.. وبعد مدّة طويلةٍ، وحجبٍ مديد، ضرب موسى باب القصر بعصاه.. ففتحت الأبواب بإذن الله تعالى، ولما مثلا أمام فرعون.

قال لهما فرعون: من أنتما؟

قالا: (إنا رسول رب العالمين فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم).

قال فرعون: وما الدليل على أنكما رسولان؟

قالا: (قد جئناك بآية) علامة تدل على صدق دعوانا وهذه العلامة (من ربّك والسلام على من اتبع الهدى). ثم نصحاه قائلين: (إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولّى).

قال فرعون: (ألم نُربّك فينا وليداً)؟ فقد كنت أنت في حجري وفي بيتي، فكيف صرت نبيّاً تدعوني إلى اتّباعك؟ ثم كنت قد (لبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت) قتلت أحد أصحابي، قبل مدّة.. ثم تدّعي النبوّة؟!

قال موسى: نعم أنا الذي قتلت.. ثم (فررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين). وأمّا أنّك تقول: أنا ربيت في بيتك فهل تلك نعمةً تمنّها علي؟ إني إنما ربيت في بيتك لظلمك واضطهادك لبني إسرائيل.. فإنّك إن لم تكن تقتل أولاد بني إسرائيل وتستعبدهم، لم تكن أمي تقذفني في البحر، حتى يلقيني اليمّ إليك لتربيني (وتلك نعمةٌ تمنّها علي أن عبدت بني إسرائيل؟)

ــ 6 ــ

وهنا انقطع فرعون عن الكلام، لأنّه لم يحر جواباً.

أشار فرعون إلى بعض خدمه أن يقتل موسى فقام إليه بعضهم ليقتله، لكن الله تعالى حال دون ذلك، فلم يتمكّن السيّاف أن يضرب عنقه. ولما عجز فرعون عن قتله، أخذ يحاجه في الله تعالى.

(قال فمن ربّكما يا موسى)؟

(قال ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أي خلق كل شيء على صورته الخاصة ثم هداه بما أودع فيه من الغرائز إلى حوائجه.

قال فرعون ــ وهو يريد أن يغلب موسى في الكلام، حتى يظهر نفسه في مظهر العالم الفاهم ويظهر موسى في مظهر الجاهل: (فما بال القرون الأولى)؟ فإنك إن صدقت أنك نبي فما حال الناس السابقين الذين ماتوا ولم يؤمنوا بك؟ فهل أنهم معذّبون كما تزعم؟

لكنّ هذا السؤال، لما لم يكن مربوطاً بالمقام، وكان فرعون يريد بذلك تطويل الطريق في المحاجّة، كما هي عادة المعاندين، حيث يفرون من الكلام الذي هو موضع المقصد، إلى كلامٍ تافه لا قيمة له.

لم يُجِب موسى عن كلامه تفصيلاً، وإنما أجاب إجمالاً، بقوله: (عِلمها عند ربي) إن علم تلك القرون، وأحوال الأمم السابقة من الصلاح والفساد لا يرتبط بنا، بل إنه موجود عند الله تعالى وهو المجازي لهم.

وقد أرى موسى (عليه السلام) عصاه لفرعون لعلّه يؤمن، لكن فرعون تمادى في طغيانه، وأظهر عدم الإيمان.. إنه علم صدق موسى، لكنّه خاف أن يذهب سلطانه وعزّه إن آمن، ولذا أظهر الإنكار. (فتنازعوا أمرهم بينهم) جعل من في بلاط فرعون، يتباحثون حول موسى وعصاه، وما ظهر من أمره، هل صادقٌ أم كاذب؟ وما كيفية الخلاص منه؟ (وأسرّوا النجوى) فأخذ يناجي بعضهم بعضاً بكلام سر.

وأخيراً.. قرّر فرعون وأصحابه أن موسى ساحرٌ وليس بنبي، وأن هذه العصا التي تنقلب حيّةً إنما هي سحرٌ وليست بدليل نبوّة.

قال فرعون: إن عملك يا موسى سحرٌ ونحن لسنا من الساحرين حتّى نتمكّن من كسر شوكتك والإتيان بسحر مثل سحرك، وإنما نجعل بيننا وبينك موعداً لندعو السحرة، حتى يأتوك، ويأتوا بمثل سحرك: وحين ذاك يتبين انّك ساحرٌ ولست بنبي، كما تزعم.

هكذا قال فرعون، ليبقى على شوكة نفسه ويظهر للناس أنّه منصفٌ فيما قال. وقبل موسى ذلك.. وجعلوا بينهم موعداً في يومٍ معين.

فأرسل فرعون إلى أطراف مملكته يجمع السحرة، وقد كانت بلاد مصر في تلك الأزمنة مليئةً بالساحرين. فاجتمع جمع كبير من السحرة، حتى أن بعض الروايات تقول أن عدد السحرة كان ثمانين ألفاً.

وقالت السحرة لفرعون: (أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين)؟ يجب أن تجزل لنا في العطاء إن غلبنا على موسى.. قال فرعون: نعم لكم الأجر الجزيل (وإنكم لمن المقربين) أقربكم إلى بلاطي، وأقضي حوائجكم.

ولم تكن هناك حاجة إلى هذا العدد الكبير من السحرة، وإنما أراد فرعون إظهار قوّة نفسه، بالإضافة إلى أن الجبّارين ــ دائماً ــ يخافون من سيطرة الخصم، فيجمعون حول أنفسهم ما يضمن لهم النجاح ــ بزعمهم ــ حتى إذا لم ينفع بعضهم نفع البعض الآخر، إبقاءً على رئاستهم وشوكتهم.

ــ 7 ــ

جاء اليوم المعيّن.. وطلعت الشمس، فاصطف الجماعتان فوقف موسى وهارون، وبنو إسرائيل الذين كانوا اتباع موسى (عليه السلام)، في جانب.. ووقف فرعون ووزراؤه

وقوّاده والسحرة وجماهير المصريين، في جانب آخر وارتفعت الشمس، حتى صار وقت الضحى.

وقد جاء السحرة بأقسام من (الحبال) و(العصي) جعلوا فيها الزئبق، ولونوها بألوان الحيات والأفاعي، فإذا ألقيت في الشمس تحركت بحرارة الشمس التي تشع على الزئبق، فيظن الناس أنها حيات حقيقية تتحرك بحركتها الطبيعية.

وقالوا لموسى: (إمّا أن تلقي) عصاك (وإمّا أن نكون نحن الملقين) لعصيّنا وحبالنا.

قال لهم موسى: القوا انتم أوّلاً ــ وهكذا يكون الإنسان الواثق من نفسه، لا يأبه لما عند خصمٍ، لأنّه يعلم أن الغلبة له ــ (فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون) فتحرّكت الحبال الكثيرة والعصي الكثيرة، حتى ملأت الصحراء حركةً واضطراباً، وخاف الناس، وأخذوا يفرّون، زاعمين أن ذلك كلّه حيّاتٌ وأفاعي. وخاف موسى (عليه السلام) أن يغترّ الناس بهذه الحبال ولا يميزوا بين (عصاه) الحقيقة وعصيّهم الخيالية.

لكن الله تعالى، أوحى إليه أن (لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك) أي اطرح عصاك على الأرض حتى تنقلب ثعباناً. وألقى موسى عصاه، فإذا بها تنقلب حيّة عظيمةً، أخذت تعدو في الصحراء، (فإذا هي تلقف ما يأفكون) أي تأكل حبال القوم وعصيّهم بكلّ استعجال.

ولما رأى السحرة ذلك، علموا أن الأمر ليس بسحر، ولو كان سحراً لم يتمكن أن يأكل تلك الحبال والعصيّ التي تربو على الآلاف.. ثم أخذ موسى عصاه، فرجعت كما كانت، من دون أن يزداد حجمها على حجمها السابق وإن كانت أكلت جميع تلك الحبال والعصي.

ــ 8 ــ

ولما علم السحرة صدق موسى، ألقوا بأنفسهم على الأرض يسجدون لله سبحانه، ويعترفون بألوهيّته ورسالة موسى، ويخلعون عن أنفسهم إيمانهم السابق، بألوهيّة (فرعون).

قالوا: (آمنا بربِّ العالمين ربّ موسى وهارون).

وهنا سقط في يد فرعون.. إنّ أنصاره الذين هيأهم لنصرته انقلبوا عليه، ونصروا خصمه (موسى) والناس بطبعهم في مثل هذا الموقف يؤيدون (موسى) فقد شاهدوا بأنفسهم المعجزة، واعترف بصدقها أهل الخبرة!

فماذا يصنع فرعون، أمام هذه الهزيمة المحقّقة؟ رأى فرعون أن أحسن الوسائل التهديد والتعذيب ــ الذي هو عمل الجبّارين المبطلين في مقابل الحق ــ (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم)؟ كيف تؤمنون بموسى قبل إذني؟ ألست أنا الملك؟ ثم أراد خداع الناس، بأن موسى والسحرة اتفقوا على هذا الأمر، فقال: (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة).

ثم أخذ يهدّدهم، ويقول: (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) اقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس، لئلا يبقى توازن أجسامكم (ولأصلبنّكم في جذوع النخل) حتى تموتوا.

لكن السحرة الذين آمنوا، أجابوا فرعون ــ بكلّ هدوء واطمئنان ــ : (اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي تحكم علينا بالتعذيب والفناء من هذه الحياة، ونحن لا نخاف من ذلك، فإننا ننتقل إلى الآخرة والخير السرمديّ.

ــ 9 ــ

ما آمن فرعون، بما شاهد من قصة (عصا) موسى التي انقلبت حية. فأتى إليه موسى (عليه السلام) بثماني معاجز أُخر، كلّها تدل على صحّة نبوّته وصدق كلامه حتى اصبح لموسى تسع آيات كلّها خارقة دالّة على أنه مرسلٌ من قبل الله تعالى، فأدخل موسى يده في جيبه، ثم أخرجها، وهي تشرق كالشمس، ثم أدخلها في جيبه وأخرجها فرجعت إلى حالتها الأولى وهكذا كان موسى يفعل كلما أراد.

ثم إنّ (هامان) وزير فرعون، لما رأى هامان إيمان السحرة بموسى، قال لفرعون، إن الناس قد آمنوا بموسى، فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس فرعون من آمن بموسى من بني إسرائيل خوفاً من توسع الإيمان.

فأرسل الله سبحانه على آل فرعون (الطوفان) بان غرقت ديار مصر بالماء الكثير حتى اضطرّ الأهالي إلى أن يذهبوا خارج المدينة في الصحاري المرتفعة ويعيشوا في الخيام

والأكواخ. وقد علم فرعون أن هذا البلاء من أجل موسى (عليه السلام)، فقال فرعون لموسى ادع ربك يكفّ عنا الطوفان حتى أخلّي عن بني إسرائيل.

فدعا موسى ربّه، فكفّ الله سبحانه ببركة دعاء موسى الطوفان، لكنّ فرعون لم يفكّ بني إسرائيل خوفاً من أن يجتمعوا حول موسى فلا يتمكّن من مقاومتهم، وقد أشار عليه (هامان) وزيره، بعدم فكّهم.

فأرسل الله سبحانه عليهم بعد ذلك (الجراد) فأخذت الجراد تأكل كل شيء لهم، حتى إنّها تأكل لحاهم وشعور جسدهم، فجزع فرعون وآله من ذلك جزعاً شديداً.. فطلب فرعون أن يكفّ الله عنهم الجراد، ليفك بني إسرائيل، فدعا موسى ربّه، فكفّ عنهم الجراد لكنّ فرعون لم يفِ، خوفاً من التفاف بني إسرائيل حول موسى، وعدم سهولة مقاومتهم بعد ذلك.

ــ 10 ــ

فأرسل الله سبحانه على آل فرعون (القمل) فكثرت فيهم، حتى أن وجه الأرض امتلأت، ولقوا من الإرهاق والصعوبة ما لا يطاق.

وطلب فرعون من موسى (عليه السلام) أن يدعو الله ليكف عنهم القمل، فإذا فعل ذلك أطلق سراح بني إسرائيل. فدعا موسى وكفّ الله عنهم، لكنّ فرعون نكث بعهده ولم يطلق بني إسرائيل.

فأرسل الله سبحانه عليهم (الضفادع) فكانت تكون في طعامهم وشرابهم وقدورهم وأوانيهم، ولقوا من ذلك عنتاً وعذاباً.

فطلب فرعون من موسى أن يكفّ الله عنهم الضفادع، فإن فعل ذلك كفّ عن بني إسرائيل وأرسلهم إلى موسى. فدعا موسى، وارتفع عنهم (الضفدع) لكنّ فرعون لم يف بعهده بل ألقى بني إسرائيل في السجون.

ثم ابتلاهم الله سبحانه بـــ(الدم) فقد تحوّل (ماء النيل) دماً، فكان الإسرائيلي إذا أراد شربه، تبدّل عنده ماءاً، فلم يهنأ قبطي بالماء، في شربه، ولا في سائر حوائجه. فطلب فرعون من موسى (عليه السلام) أن يدعو الله، ليرجع الماء كما كان، ووعده إن

فعل موسى ذلك، كفّ عن بني إسرائيل، وأطلق سراحهم ليكونوا مع موسى (عليه السلام). فدعا موسى، وارتفع (الدم) لكنّ فرعون العنيد لم يف بما وعد.

ثم ابتلاهم الله سبحانه بـــ(الرجس) وهو (الثلج) فنزلت عليهم (الثلوج) وبرد الهواء برداً شديداً، ما لم يكونوا يعهدون، وطلب فرعون من موسى أن يرفع (الله) عنهم الرجس ليكف هو عن بني إسرائيل. فدعا موسى، ورفعه الله سبحانه.. لكن فرعون بقي على عناده ولم يطلق بني إسرائيل، حسب ما وعد.

وأخيراً.. ابتلاهم الله سبحانه بـــ(الطاعون) فأخذ الطاعون يغزوهم، حتى مات من القبط جمعٌ كثير.

فطلب فرعون من موسى، أن يدعو الله لرفع الطاعون واعداً إياه أن يكف عن بني إسرائيل. فدعا موسى، ورفع الله عنهم الطاعون. وهنا.. اضطرّ فرعون للكفّ عن بني إسرائيل، فأطلق سراحهم من الحبس.

واجتمع بنو إسرائيل إلى موسى (عليه السلام) يسترشدونه في وجه الخلاص من فرعون الذي بقي عاتياً، لا يؤمن، ويضع المشاكل في طريقهم ويعرقل سير الدعوة.

وخاف (هامان) وزير فرعون، من التفاف بني إسرائيل حول موسى، وأنّب فرعون على تخليه عن بني إسرائيل، فقال له: قد نهيتك عن التخلّي عن بني إسرائيل، وها أنت ترى نتيجة عملك فقد التفوا حول موسى، ويخشى من عاقبة هذا التجمع؟

لكن الأمر كان قد انقضى أوانه، وكان لوم (هامان) في غير موقعه فلم يبق للقبط طاقة في مواجهة العذاب الذي كان ينزل بهم من جرّاء حبس بني إسرائيل، ودعاء موسى.

وأخيراً.. أمر الله تعالى موسى (عليه السلام) أن يخرج مع بني إسرائيل من أرض مصر، إلى مكان آخر يتمكنون فيه من تنظيم أمورهم، وعبادتهم لله سبحانه بلا مزاحم، وقرّر موسى الخروج، وأخبر بني إسرائيل بذلك. فتهيأ الجمع الغفير للفرار من (فرعون) والتخلص من سلطانه.

بنو إسرائيل في التيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

تذكّر بنو إسرائيل وهم في التّيه أتعابهم السابقة يوم كانوا في مصر تحت تعذيب فرعون، لأنّهم مؤمنون، وفرعون لا يرضى بالإيمان.

وتذكّروا انتظارهم لمقدم موسى ــ حسب ما كانوا يحفظون من أخبار الأنبياء السابقين أنّ خلاصهم على يد نبيّ اسمه موسى ــ .

وتذكّروا ما لاقوه من ظلم فرعون، حين جاء موسى وأظهر المعجزات، فلم تزد فرعون إلا ضلالاً واستبداداً.

وتذكّروا ضحايا العقيدة، الذين اضطهدهم فرعون لأنّهم آمنوا برب العالمين. تذكّروا قصة السحرة بعد إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون، حين قال لهم فرعون: (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل) فقالوا: لا ضير (إنا إلى ربنا منقلبون)..

وتذكّروا قصّة ماشطة آل فرعون وأولادها كيف عذبهم فرعون الطاغي، بما لا يدل إلا على الحقد الأسود، والاستبداد الجارف.

فقد كانت في بيت فرعون امرأة صالحة، تمشّط زوجة فرعون وبناته وسائر نساء الوزراء والأقارب، وبعد ما علمت بقصة موسى آمنت خفيةً من فرعون وذويه إلى أن انفلت زمام الإخفاء من يدها ذات مرّة.

فقد كانت تمشّط بنت فرعون في يوم من الأيّام، إذ سقط المشط من يدها فقالت مبادرة: باسم الله. فالتفتت بنت فرعون إلى كلامها، فقالت: ومن تعنين بـــ(الله)؟ أبي أو غيره؟ قالت الماشطة: بل ربي وربك ورب أبيك، فقالت البنت: لأخبرن بذلك أبي.. ثمّ ذهبت فأخبرت فرعون.

فدعا فرعون بالماشطة وبأولادها، فقال لها: من ربك؟ فقالت: إن ربي وربّك الله.

فأمر فرعون القاسي، بتنور من نحاس، فأحمي، فدعا بها وبأولادها، ثم طلب منها أن تتبرّأ من دينها! لكنّها أبت إلا الصّمود، وكلّما هدّدها أصرّت على قولها، وعند ذلك أمر فرعون بأن يلقى أولادها في التنّور واحداً واحداً، أمام عينها، فما كان من المرأة المؤمنة الصامدة إلا الصبر والتسليم، وتفويض أمرها إلى الله سبحانه.

وصلت النوبة إلى ولدها الصغير، وهو رضيع في حجرها، فجذبوه منها ليلقى في التنور المسجور، ومن الطبيعي أن تضطرب الأم أشد الاضطراب في مثل هذه الحالة، وأن تذرف الدموع الساخنة.. لكن رحمة الله كانت قريبة منها، فما كان من الرضيع إلا أن نطق ــ بأمر الله تعالى ــ مسلّيا أمّه قائلا: اصبري يا أمّاه إنك على الحق. فألهم هذا الكلام قلب الأم الحنون صبراً وصموداً أكثر، كما أحدث في فرعون وآله رجّة شديدةً، كيف يتكلّم الرضيع؟ أليس هذا دليلاً على صدق كلامها وصحّة إيمانها؟ لكنّ الطغاة اعتادوا أن لا يصيخوا للحق، ولو جاءتهم كل آية.

وما هي إلا دقائق، حتى احترق الرضيع، كأُخوته من ذي قبل! ثم ألحقت الأم بأولادها، فألقيت في التنور، فاحترقت.

وانقضى كل شيء.. فلم يكن للماشطة المؤمنة وأولادها الأطهار خبرٌ أو أثر، وبقي الطاغي يتعطش إلى الدماء أكثر فأكثر.

ــ 2 ــ

تذكّر بنو إسرائيل وهم في التيه كل ذلك ــ فإنّه من الطبيعي أن يتذكر الإنسان مآسيه السابقة، حين يقع في مشكلة جديدة ــ .

كما تذكّروا قصة المرأة الصالحة (آسية بنت مزاحم) زوجة فرعون، التي حفظت موسى يوم كان صغيراً، والتي آمنت به سرّاً يوم جاء موسى رسولاً من عند الله تعالى.

فقد كانت من بني إسرائيل، وكانت تعبد الله سرّاً، حتّى رأت ما صنع بالمرأة الصالحة وكشف الله عن بصرها، فإذا بها ترى روح المرأة يصعد بها الملائكة إلى السماء، فزادت إيماناً وإخلاصاً وتصديقاً.

وبينما هي في لوعة وأسى، على المرأة الصالحة دخل عليها فرعون السفّاك فأخذ يخبرها بما صنع بالمرأة، في نشوة النّصر والانتقام.

فلم يكن من (آسية) إلا أن ازوَرَّت عنه قائلةً: الويل لك يا فرعون! ما أجرأك على الله جلّ وعلا؟ فعرف فرعون إنّها هي الثانية أيضاً مؤمنة. فقال لها: لعلّ الجنون الذي اعترى صاحبتك قد اعتراك.

أجابت آسية: كلاّ، لكن آمنت بالله تعالى ربّي وربّك، وربّ العالمين.

غضب فرعون، وأقسم أن يجبرها على الكفر بموسى وإلهه، وإلا أذاقها النكال والعقاب.. لكن المرأة الصالحة تمسّكت بدينها، وأصرّت على عقيدتها.

فما كان من فرعون الأثيم، إلا أن نسي العلاقات الطيّبة بينه وبين المرأة الشريفة (آسية) ونسي خدماتها طيلة عمرها في دار فرعون.. فأمر أن تمدّد (آسية) في الشمس، وتدقّ على يديها ورجليها المسامير الحديديّة، ثم بعد كل ذلك يوضع على صدرها صخرةٌ عظيمةٌ إمعاناً في تعذيبها ونكايةً بها.

ومرّ موسى على مكان التعذيب، فآلمه ما رآه من عذابها، فدعا الله لها، فرفع الله عنها الألم ورأت مكانها في الجنة، فأخذت تضحك من السرور. ولمّا رأى فرعون ضحكها قال: لقد مسّها طائف من الجنون.. لكن الأمر كان بخلاف ذلك.

ــ 3 ــ

طبيعي أن يتذكر بنو إسرائيل في التيه قضاياهم السالفة، وان يتذكّروا قصّة مؤمن آل فرعون، فد كان ابن عمّ فرعون ويسمّى (حزقيل) مؤمناً، وكان يكتم إيمانه، وقد جعله فرعون وليّ عهده، لكنّه آمن بموسى لمّا رأى صدقه ومعجزاته.

وذات مرّة وشي به إلى فرعون أنّه قد آمن بالله، فأرسل فرعون رجلين في طلبه، فرأياه في الجبال يصلّي، فجاءا واختلفا هل يخبران فرعون بخبره أم لا؟ أما أحدهما فقال: لن أخبر فرعون وأمّا الآخر فقد أخبره بما رآه، فغضب فرعون أشد الغضب، وقال: لئن كان هذا صادقاً لأعذّبنّ حزقيل عذاباً شديداً.

وعرف (حزقيل) بالأمر، واستعاذ بالله من شر (فرعون) ثم جاء إلى القصر، وهو وجل خائف.. فلمّا استقرّ به المجلس، قال له فرعون: أتنكر ربوبيّتي، وتصلّي لإله غيري؟ قال حزقيل: ومن قال لك ذلك؟ قال فرعون هذا الرجل. قال حزقيل ــ وقد وجد مفرّا من المأزق الحرج ــ :

أيها الملك اسأل هذين الرجلين اللذين وشي أحدهما بي: من ربّهما، وخالقهما، ورازقهما، فسألهما فرعون عن ذلك؟ قالا: ربنا وخالقنا ورازقنا هو أنت أيها الملك.

قال حزقيل: فاشهد أيها الملك، واشهدوا أيها الحاضرون: أن ربهم هو ربي وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، وليس لي غيره خالقاً ورازقاً وربّاً.. وقد قصد بذلك الواقع، فإن خالق الرجلين وخالق حزقيل هو (الله).

لكن فرعون زعم أن حزقيل يقصد (فرعون) فكفّ عنه وأكرمه، وجعله في محل اطمئنانه واستشارته. أما الرجلان، فأحدهما وهو الذي وشى بـــحزقيل فقد لاقى جزاءه من فرعون بالصلب، لأن فرعون ظنّ انه كاذباً في وشايته ضد حزقيل وأما الذي كتم صلاة حزقيل فإنه نجا ولم يمس بسوء، ثم آمن هو كما آمن حزقيل وحَسُن إيمانه.

ــ 4 ــ

أما بنو إسرائيل في البريّة، فقد تابوا وأنابوا لما بدر منهم في مخالفة أمر الله سبحانه الذي أمرهم بدخول الأرض المقدسة. لكن انطبق عليهم المثل المعروف: (ندم زيد ولمّا ينفعه الندم) فقد سبق أمر الله سبحانه، لعقوبتهم على المخالفة، بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وقد كان تيههم في فراسخ معدودة، فإذا أمسوا أخذوا يتحرّكون، ثم إذا أصبحوا رأوا أنّهم في مكانهم الأوّل، وهكذا إذا ساروا صباحاً، وجدوا أنفسهم في الليل في نفس المكان.

وعزم جماعة منهم على الرحيل والرجوع إلى مصر، لكن أنى لهم ذلك، وقد كان المقدّر أن يتيهوا في نفس تلك الأرض. واشتكوا إلى موسى ما يلاقونه في تلك البرية من حر الشمس نهاراً، وبرد الليل والجوع والعطش، فدعا الله موسى (عليه السلام)، فأرسل الله سبحانه قطعة من السحاب كانت تظللهم كل يوم وتقيهم من حر الشمس. كما أن (المنّ) وهو شيء يشبه (الترنجبين) و(السلوى) وهو طير (السّماني) كانا يأتيانهم لأكلهم.

وكان مع موسى حجرٌ يضعه وسط العسكر، فيضربه بعصاه، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبطٍ من الأسباط نهرٌ خاص به، ليشرب منه الماء ويقضي به حوائجه.

وكانت عصى موسى بالليالي المظلمة تشع لهم، كالمصباح القوي، فيرون الأشياء في نورها.

(وظلّلنا) يا بني إسرائيل (عليكم الغمام) السحاب ليقيكم من حر الشمس، و(أنزلنا عليكم المن والسلوى) لأكلكم ولقنا لكم: (كلوا من طيبات ما رزقناكم)، (وإذا استسقى) طلب الماء (موسى لقومه) (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) فضرب موسى (عليه السلام) الحجر (فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس) من الأسباط الاثني عشر (مشربهم) وقلنا لهم: (كلوا واشربوا من رزق الله).

ــ 5 ــ

بقي بنو إسرائيل في التيه، أكلهم واحد: (المنّ والسلوى) ولهم ظلّ واحدٌ (الغمام) ولهم ماء واحد هو ما يتفجّر من (الصخرة).

أمّا ماذا كان لباسهم؟ وهل كانت لهم خيامٌ؟ وكيف كان يربّون أولادهم؟ وهل كانوا يقضون الأيام والليالي بالبطالة أو العمل؟ وغير ذلك من الأسئلة، فلا نعلم عنها شيئاً ملموساً لكن من الطبيعي أن يتضجّروا ويملّوا هذه الحياة البدائية الرّتيبة، التي لم تدم يوماً ولا شهراً ولا سنةً وإنما استمرّت أربعين عاماً.

ولعلّ إبقاءهم في التّيه لم يكن صرف عقوبةٍ على عدم إطاعتهم في دخول الأرض المقدسة، بل كان وراء ذلك إرادة تأديبهم ونضجهم، ليصلحوا أن يكونوا حملة رسالة موسى إلى الأمم الآتية، فإن حملة الرسالة لابد لهم من عقل ونضج، لا يتوفران للشخص بسرعة، وإنّما بطول المحنة والتجارب والشدائد.

فقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون شريعة موسى (عليه السلام) عالميّة في الفترة ما بين موسى وعيسى، حتى إذا جاء المسيح انتقلت الشريعة إليه، في فترة ما بينه وبين رسول الإسلام، حتى إذا جاء محمد (ص) نسخت شريعته الأديان كلّها، ولم يقبل من أحد غير الإسلام إلى يوم القيامة.

وكيفما كان الأمر.. فقد ملّ بنو إسرائيل في التيه الطّعام الواحد، فقالوا: (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع) واطلب (لنا) من (ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها

وقثائها) الخيار (وفومها) الثوم (وعدسها وبصلها) ولعل هذه المذكورات من باب المثال، بأن طلبوا زرع الأرض على عادتهم حين كانوا في مصر.

(قال) موسى في جوابهم: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)؟ أي أتريدون أن ينقطع عنكم الطير والحلوى الميسوران بلا صعوبة، وتقعون في صعوبة الزرع وما يتبعه؟ لكنهم أصرّوا على وجهة نظرهم.. فقال لهم: (اهبطوا مصراً) من هذه الأمصار التي هي قبل الأرض المقدسة، فإن في أطراف التيه كانت قرى، وكان يتوفر فيها الغذاء وما طلبوه، (فإن لكم ما سألتم) من البقل والقثّاء وغيرهما.

فجعل بنو إسرائيل يرتادون القرى، ويحصلون منها على ما يشتهون من الأطعمة.

ــ 6 ــ

هنالك نفوس شريرة بطبعها، ونفوس طيبة في طينتها، وقد كان بنو إسرائيل من القسم الأول، فقد فضّلهم الله على العالمين، إذ بعث فيهم أنبياء، وجعل منهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ثم.. نجّاهم من فرعون الطّاغي، وأهلك عدوّهم، وأراهم الآيات البيّنات، لكنهم أبوا إلا تمرّداً وعُتواً، حتى ابتلاهم بالتيه، ولكنّهم (ضربت عليهم الذلّة والمسكنة) فإنّ الإنسان الحريص لابد وان يكون ذليلاً، كما أن الشخص العاتي يلازم المسكنة.. ومن عجيب أمرهم أنهم من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أذلّة مطاردون، لم تستقم لهم دولة، وإذا اغتصبوا مكاناً ــ كفلسطين ــ فإن الاغتصاب إنما يتسنّى لهم بألف تملّق من دول قويّة، وألف بذل لأعراضهم للأعداء، فإن كل واحد يعلم أنهم حصلوا على وعد (بلفور) بإرسال فتياتهم الجميلات إلى الضبّاط والقادة وأهل النفوذ، وهكذا إلى اليوم يجعلون أنفس شيء ــ وهو العرض ــ سبباً لبقاء نفوذهم المزيّف.. ثم بعد ذلك كله، هم في خوف وقلق دائمين من المسلمين الذين أحاطوا بهم، حتى إنهم لا يبرحون السلاح ليل نهار.

وعلى كل حال، فقد ضربت عليهم الذلة الأبدية (وباءوا بغضب من الله) ولعنة الدّهر (ذلك بـــ) سبب (أنهم كانوا يكفرون بآيات الله) بأدلته وحججه (ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

فمثلاً: حين كانوا في (التيه) عجزوا عن الإقامة ولم يقدروا على دخول الأرض المقدسة الموعودة، ولمّا ألحّوا على موسى أن يدخلوا بعض البلاد ليشتروا ويأكلوا كما يريدون أجاز لهم أن يدخلوا بيت المقدس، بشرط أن يسجدوا لله شكراً عند باب المدينة، ويقولوا هذه الكلمة: (حطّة) بمعنى : اللهم حطّ عنا ذنوبنا، لكنهم دخلوا الباب قهقرى ــ استهزاءً ــ وقالوا: (حنطة) عوض (حطة).

(وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا) عند دخول المدينة: (حطّةً وادخلوا الباب سجداً) في حال كونكم ساجدين، خاضعين لله تعالى، فإذا فعلتم ذلك (نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين) (فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم) ولذا نزل عليهم العذاب.

ــ 7 ــ

لم يكن الذين نزلوا التّيه، مع موسى بن عمران (عليه السلام)، قابلين للسيادة والرئاسة، وإدارة شؤون أنفسهم، فإنهم لطول ما استعبدوا في مصر، اعتادوا الذلّة والخنوع، والجبن والإحجام. ولذا لمّا سمح لهم بدخول الأرض المقدسة، خافوا العمالقة، و(قالوا اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون). فإن الإنسان إذا اعتاد على شيء، وتكرّر ذلك الشيء في نفسه، صار ملكةً عنده، لا يزول عنه بسرعة، وهؤلاء اعتادوا أن يكون لهم سيد يسودهم، واعتادوا الخوف والجبن، فلم يصلحوا للسيادة ولم يكونوا شجعاناً.

ولذا كانت مدة مكوثهم في التيه، كفيلةً بانقلابهم ــ بسبب موت الآباء، وخلافة الأبناء ــ فتتحوّل طباعهم بحيث يليقون للسيادة، وتكون فيهم عزيمة الغزو والفتح، وبقوا هناك هذه المدة الطويلة، يرتادون القرى والأرياف حتى مات أكثرهم وجاء مكانهم شعبٌ قويٌ، فيه الجرأة والإقدام، وروح العلوّ والسيادة.

وعندئذ صلحوا لدخول الأرض المقدسة، وأخذوا زمام الأمور بأيديهم.

ومن غريب الأمر أنّ موسى (عليه السلام) وأخاه هارون (عليه السلام) ماتا في ذلك التيه فلم يريا دخول بني إسرائيل الأرض، فيا لحسرة الخلف أن لا يرى القائد معه؟

ثم إن بني إسرائيل عندما كانوا في مصر كانوا تحت نظام فرعون وحكمه، لكنهم لما خرجوا من مصر وسكنوا التيه، كان لابد لهم من نظام ينظم دنياهم، ويكون لهم بمنزلة

القانون ونظام آخر لتنظيم أمور دينهم، ويكون لهم الشريعة. ولذا أخذوا يطالبون موسى (عليه السلام) بهذين النظامين.

وحيث إن مثل هذه الأنظمة في شرائع السماء، لابد وان تكون من عند الله تعالى، لأن شرائع الله لا تعترف بالأنظمة الأرضية المحدودة بأفكار الناس.. صار من المقرّر أن يأتي نظام العبادة، ونظام الإدارة من السماء. ولذا رأت صحراء التيه ولادة هذا النظام السماوي المسمّى بـــ(التوراة).

ــ 8 ــ

لقد وقع في (التيه) لقوم موسى عدة قضايا مهمة:

منها قصّة (عبادة العجل) فقد وعد موسى قومه أن يأتيهم بكتابٍ فيه نظم أمور دينهم وأمور دنياهم، حسب ما وعده الله سبحانه، فلمّا كانوا في (التيه) طلبوا من موسى إنجاز الوعد.

وقد وعد الله موسى (عليه السلام) أن يأتي إلى الطور، لمدّة ثلاثين يوماً، حتى يعطيه التوراة ولم يكن الوعد أن التوراة تعطى في نهاية ثلاثين يوماً، وإنما كان إعطاء التوراة بعد الموعد ــ في الجملة ــ .

فأخبر موسى بني إسرائيل أنه ذاهب إلى (جبل طور) لتلقّي (التوراة) كما أخبرهم: على أن يبقى ثلاثين يوماً هناك، ولم يخبرهم أنه يأتي مباشرة بعد الثلاثين.

ثم خلّف موسى فيهم أخاه (هارون) (عليه السلام)، وذهب إلى (الميقات). بقي موسى في جبل (طور) (ثلاثين يوماً).

لكن إرادة الله شاءت امتحان (بني إسرائيل) ولذا لم ينزل التوراة في نهاية الثلاثين، وإنما أتمّ الثلاثين بعشرة أخرى، حتى صارت أربعين يوماً.. ثم أعطى (التوراة) في (ألواح) لموسى (عليه السلام).

أما بنو إسرائيل، فإنهم ما كانوا يطيعون هارون لخبثهم، وقد كان هارون (عليه السلام) لين العريكة، يخشى كفرهم وانقلابهم إن شدّد عليهم الأمر.

وهكذا أخذ بنو إسرائيل يجمعون أنفسهم في اجتماعات، للانقلاب، لكنهم كانوا يخشون موسى (عليه السلام)، ولمّا تأخر رجوع موسى اغتنموها فرصة! فتجمهروا أوّلاً، لقتل

هارون (عليه السلام)، حتى يخلعوا الشريعة عن أعناقهم، لكنهم لم يتمكنّوا من ذلك، بفضل بعض المخلصين.

ثم.. زاد الأمر انحرافاً، لقد جاءهم (الشيطان) في صورة رجل، وقال لهم إن موسى لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً كذّاباً ــ والعياذ بالله ــ وحيث إنه لا يتمكن من القيام بإدارتكم، فرّ، باسم (الميقات) ولن يرجع إليكم أبداً. فقويت عزيمة بني إسرائيل الأشرار، على أن يخلعوا الشريعة من رقابهم، وأن يرجعوا إلى عبادة غير الله، بما اعتادوا أن يروه في مصر. فقد كانت رواسب الجاهلية الأولى بَعد في نفوسهم.

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) ولمّا أراد موسى الذهاب إلى (طور) (قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين).

ــ 9 ــ

لقد قرّر الأشرار من بني إسرائيل الذين كانوا في التيه ــ بعد غيبة موسى (عليه السلام) ــ أن يصنعوا لأنفسهم إلهاً.. وقد كان في بني إسرائيل رجلٌ من الأخيار اسمه (السّامري) وكان قد رأى يوم خروج بني إسرائيل من مصر ــ عبر البحر ــ جبرئيل (عليه السلام) راكباً على (رمكة) فكان فرس جبرئيل كلّما وضع رجله على موضع، تحرّك ذلك الموضع، كأنه شيء حيّ، فاتّخذ (السامري) ذلك اليوم قسماً من تراب حافر فرس جبرئيل وادّخره لنفسه.

ثمّ.. إن السامري، التفّ حوله القوم، طالبين منه أن يصنع لهم (صنماً) يعبدونه، فقال السامري: علي بالذّهب الذي معكم من الحلي والحلل، فجاءوا إليه بما كان عندهم من الذهب، فأذابه وصنع منه صورة (عجل)، وألقى ذلك التراب في جوفه، فأخذ العجل يخور من أثر تحرّك التراب في جوفه.

وقال لهم: (هذا إلهكم) يا معاشر بني إسرائيل..

وهؤلاء قد علموا فذلكة السامري، لأنهم كانوا رأوا التراب وحركته من قبل، إذ كان السامري يفتخر عليهم بذلك التراب.. لكنهم كانوا يريدون التخلص من الشريعة، وعبادة الله سبحانه، فاتخذوا العجل إلهاً.

سجد سبعون ألف شخص من أولئك الذين كانوا في التيه (للعجل)، وكلما نصحهم (هارون) والخيار من أصحاب موسى (عليه السلام)، لم ينفع فيهم النصح.

وحيث كان موسى (عليه السلام) في الجبل، أوحى إليه الله تعالى بقصّة (السامري) و(العجل) (قال) الله (فإنّا فتنّا) وامتحنّا (قومك من بعدك وأظلّهم السامري) ولمّا انتهى أمد الطور وأخذ موسى الألواح (رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً)؟ كما رأيتم من خلاصكم من فرعون، وإعطائكم الكتاب (أفطال عليكم العهد)؟ حتى عبدتم العجل (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي) في بقائكم على الشريعة وإطاعتكم لهارون؟

لكن هل يكون لهم عذرٌ معقول أمام موسى، وما اقترفوه من الإجرام؟

ــ 10 ــ

لم يكن لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل، في غياب موسى (عليه السلام)، عذر مشروع، ولذا أخذوا يعتذرون بهذا العذر التّافه (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) ونحن نملك أمرنا، حتى نتمكّن أن نفعل أو ندع (ولكنّا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم) فقد كان عندنا أحمال من ذهب آل فرعون ــ من مصر ــ (فقذفناها) وألقيناها في البوتقة لإذابتها (فكذلك ألقى السامري) الذهب في البوتقة، للإذابة.

(فأخرج) السامري (لهم عجلاً) صغير البقر (جسداً) فلم يكن عجلاً حقيقياً، وإنما تمثال عجلٍ مصنوع من الذهب (له خوار) أي صوتٌ من جرّاء تحرّك التراب الذي اتخذه السامري من تحت حافر فرس جبرئيل ووضعه في داخل العجل (فقالوا) السامري ومن آزره في صنع العجل (هذا) العجل (إلهكم) يا معاشر بني إسرائيل، كما أنه أيضاً (إله موسى فنسي أفلا يرون ألا ترجع إليهم قولاً) فإنه كيف يكون إلهاً ولا يقدر على التكلّم الذي هو أبسط مظاهر الحياة؟ وهل يكون جمادٌ عاجزٌ إلهاً؟ (ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً) فهل يملك الجماد أن يضرّ شخصاً، أو ينفع شخصاً؟

(ولقد قال لهم هارون من قبل) من قبل رجوع موسى (عليه السلام): (يا قوم إنما فتنتم به) فإنه امتحان لكم، ليتبيّن المؤمن حقيقة من المؤمن ظاهراً (وإن ربكم الرحمن) لا هذا العجل، (فاتبعوني) يا قوم (وأطيعوا أمري) في عبادة الله تعالى.

فماذا كان جواب بني إسرائيل لهارون المشفق الناصح؟ (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) فإنا نستمر في عبادة العجل (حتى يرجع إلينا موسى) من الميقات.

هكذا كان موقف بني إسرائيل إزاء العجل.. العبادة والسجدة. وكذلك كان موقف هارون أمام بني إسرائيل.. النصح والإرشاد.. فلم يقبلوا كلامه. فلننظر إلى موقف موسى (عليه السلام) مع أخيه (هارون)؟

لقد غضب موسى على بني إسرائيل أشد الغضب، وأسف لضعف عقولهم أشد الأسف ولذا توجّه أوّلاً إلى أخيه، مظهراً استياءه من القوم على سبيل: إياك أعني واسمعي يا جارة ــ فــ(قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتبعن)؟ أي: لماذا لم تتبعني في النهي عن المنكر وعقاب المخالف إذ رأيت بني إسرائيل ضلّوا عن طريق الهدى؟ (أفعصيت أمري)؟ وقد كان هذا سؤال العارف.

ــ 11 ــ

وقد كان أخذ موسى (عليه السلام) برأس هارون ولحيته، إظهاراً لشدّة غضبه على القوم على نحو: (حرب الصّاغة).

فــ(قال) هارون: (يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) حتى يزعم القوم أنك غضبت عليّ، فإني أنكرت عملهم ــ كما تعلم ــ وإنّما لم أنزل العقوبة بهم خشية التفرقة بين كلمة بني إسرائيل، فإنه إذا عنّف الإنسان ببعض جماعته تفرّق الجمع إلى مؤيد ومخالف. فــ(إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي).

ــ 12 ــ

أما موقف موسى من (السامري) ومن (العجل) ومن (بني إسرائيل):

فقد توجه موسى (عليه السلام) إلى (السامري) فــ(قال فما خطبك) وقصتك (يا سامري) كيف صنعت العجل، ولماذا صنعته؟ (قال) السامري: (بصرت) ورأيت (بما لم يبصروا به) من تحرّك التراب تحت حافر فرس جبرئيل يوم غرق فرعون (فقبضت قبضة من) تراب (أثر الرسول) جبرئيل (ع) (فنبذتها) أي جعلتها في جوف العجل.. هذا ما كان من أمر العجل، وأما لماذا صنعت العجل؟ فقد (سوّلت لي نفسي) وزيّنت لي هذا العمل البشع.

عند ذاك (قال) موسى (عليه السلام) للسامري: (فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) قيل ــ في معناه ــ أنّه إذا كان يمسّه أحد، ابتلى السامري والماس بالحمّى فوراً، فكان يقول السامري إذا اقترب من أحد: (لا مساس) أي لا تمسّني، وأخيراً هام على وجهه في البريّة، فرار من ابتلائه بالحمّى، عند اصطكاكه بالآخرين (وإن لك) يا سامريّ (موعداً لن تخلفه) فقد أخّر تعذيبك إلى الآخرة، وإنما لم يعذبه موسى (عليه السلام)، لأنه كان سخياً، فأمهله الله سبحانه، كرامة لهذه الصفة.

وبعد هذا.. وصل الدور إلى (العجل) فقد برده موسى (عليه السلام) بالمبرد، وذرّه في البحر، زيادةً في النكاية بعباده، فإنه من النكاية بالعابد لشيء إهانة معبودِه ــ ولذا تجعل آلهة الكفار حصب جهنم، كما قال سبحانه: (أنتم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم) وعلى هذا خاطب موسى (السامري) قائلاً: (وانظر إلى إلهك) أي العجل (الذي ظللت عليه عاكفاً) تعبده دون الله تعالى (لنحرقنّه) تحريقاً بالنار حتى يذوب (ثم لننسفنّه) بعد أن نحطّمه بالمبرد (في اليم) أي البحر (نسفاً) حتى لا يبقى له أثر أصلاً، فإن العجل ليس إلهاً، (إنما إلهكم) يا بني إسرائيل (الله الذي لا اله إلا هو وحده لا شريك له وسع كل شيء علماً) فإن علمه شامل لكل شيء، وليس العجل الذي لا يعلم أي شيء.

وهكذا صنع موسى (عليه السلام)، فإنه أحرق العجل، ثم حطّمه، ثم نسفه في البحر.

ومن عجيب الأمر: أن جماعةً من الذين عبدوا العجل ممن (أُشرِبوا في قلوبهم العجل) كانوا يلقون أنفسهم في البحر، ليشربوا الماء المخلوط برماد العجل.

وهكذا انتهى أمر (السامري) بالخسران والخيبة والعذاب، وانتهى أمر (العجل) بالحرق والنسف في اليم.

ــ 13 ــ

أما القوم الذين عبدوا العجل.. فقد قرّر الله لهم توبةً فريدةً في نوعها، وهي أن يشهر الجميع ــ العابد للعجل، والساكت عليه ــ سيوفهم، بعضهم على بعض، وهكذا يقتل البعض البعض الآخر حتى يأمرهم موسى بالكفّ عن ذلك، فــ(قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) إلهاً (فتوبوا إلى بارئكم) خالقكم، أي الله سبحانه

(فاقتلوا أنفسكم) ليقبل توبتكم بهذا السبب (ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم) لأنه ينجّيكم من العذاب الأبد.

وحيث أنكم فعلتم ما أمرتم (تاب) الله (عليكم إنه هو التواب الرحيم).

فقد وقف بنو إسرائيل صفّين طويلين، شاهرين السيوف، وغشيتهم ظلمة، حتى لا يرى القاتل المقتول فيرق له، وأخذ يقتل بعضهم بعضاً، وموسى وهارون عليهما السلام وقفاً يتضرّعان إلى الله سبحانه، في رفع هذا الحكم، وإنزال التوبة.

حتى ارتفعت الظلمة، ونزلت التوبة، وسرّ الجميع، وبعد ما أحصوا القتلى، انكشف الأمر عن سبعين ألف قتيل!!

يا لدهشة الأمر؟ لعظم الهول؟! لا تكون التوبة إلا هكذا، ولا تنجلي المعركة، إلا بسبعين ألف قتيل؟ ومن القاتل؟ ومن المقتول؟ أبناء وآباء وأقرباء، وإخوان!! كيف كان هذا الحكم! وكيف رضيت نفوس بني إسرائيل بتوبة كهذه.

الأصح أن نقول: العلم عند الله.

لكن من المظنون أن الله سبحانه، قدّر رؤوس الفساد بهذه الكيفية، فإنّ في كل أمة جماعةً لا يزالون يعبثون بمقدّرات الأمة، وينشرون الفساد والضلال، ولا نجاة للأمة في حاضر أمرها، ولا للأجيال الآتية في المستقبل، إلا بالتخلّص من مؤامرات هؤلاء وإفسادهم، أليس من الأحسن أن يقتل سبعون ألفاً لنجاة ملايين من البشر؟

إن من يرى اعتداء (اليهود) على بلاد الإسلام، وغير بلاد الإسلام، ــ هذا اليوم ــ يعرف كيف أن هذا الحكم كان عادلاً! إن اليهود بعد مرور هذه الحقبة الطويلة من الزمن، وتحضرهم، لا يرعوون عن كل فساد وإفساد، وإن كان فيه هلاك العالم، فكيف بذلك اليوم؟ وهم بعد في أول السير نحو الحضارة والمدنية.. وقد كان سبحانه يعلم من يقتل في ذلك اليوم، فلم ينل السيف إلا المستحق.

وكيف كان.. إقدام القاتلين على قتل أقربائهم توبة لهم، كما كان موت المقتولين أيضاً توبةً لهم ــ من غير فرق بين العابد للعجل والساكت عن المنكر، قاتلاً ومقتولاً، فكلّهم كانوا شركاء في الجريمة ــ.

ولكن هل تنتهي عند هذا الحد قصّة بني إسرائيل؟

كلا! إن لهم قصة طويلة، ذات فروع، وكما لا تنتهي القصّة عند هذا الحد، كذلك لا ينتهي تمردهم وعتوّهم عند عبادة العجل، والتوبة على يد موسى.. فإن من جبل على الشر وإن تاب ألف مرة، لا ينتهي غيّه، وبنو إسرائيل وإن كانوا مفضّلين على عالمي زمانهم من جهة، لكنّهم من جهة أخرى كانوا أكثر الأمم شرّاً وفساداً، وكانت فيهم قطاعات كبيرةٌ من أهل الشرّ والفساد، وكيف جمعت فيهم فئة كبيرة من الصالحين حتى يستحقّوا أن يقال عنهم: (فضّلتكم على العالمين) وفئة كبيرة من الأشرار، حتى يستحقوا أن يقال عنهم: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)! فذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

الكليم وبنو إسرائيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

أقام موسى (عليه السلام) في (طور سيناء) وهو جبل كان يناجي الكليم عليه ربه أربعين يوماً صائماً، قائماً، مناجياً ربه.

وبعد تمام الأربعين، أنزل الله عليه الكتاب المقدس (توراة) وقد قال سبحانه: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور). وكان هذا الكتاب على ألواحٍ من (زبرجد أخضر) من ألواح الجنة. وفيها أحكام الله سبحانه، التي تنظمّ أمور البشر أمور دينهم، وأمور دنياهم.

وقد كان اللازم على كل البشر، أن يتّبعوا هذا الكتاب المقدس في جميع شؤونهم ــ لأن موسى (عليه السلام) كان مبعوثاً لكل البشر ــ .

وهكذا كان هذا الكتاب هو كتاب الله الذي يجب على الأجيال اللاحقة لموسى (عليه السلام) اتباعه والعمل به، حتى إذا جاء دور المسيح عيسى (عليه السلام)، صار البشر مأمورين باتباعه وكان كتاب المسيح (الإنجيل)، وكان الإنجيل نافذ المفعول، حتى جاء دور نبي الإسلام (محمد صلى الله عليه وآله وسلم) فأتى بـــ(القرآن الكريم) ناسخاً لما تقدّم من الأحكام، باقياً إلى الأبد، فقال سبحانه: (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

لكن اليهود، حرّفوا هذا الكتاب (التوراة) كما قال سبحانه: (يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذُكّروا به) ولذا ليس (التوراة) الآن هو الصحيح عندهم. والنسخة الأصليّة من (التوراة) التي نزلت من الجنّة، أودعها موسى (عليه السلام) في (بطن الجبل) لمّا حضرته الوفاة ــ وكانت نسخٌ منها بأيدي اليهود. ثمّ حرّفوها ــ فلمّا بعث نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلّم، أظهر الله تلك النسخة الأصلية له، فكانت عنده، ثم أودعها علياً (عليه السلام)، وكذلك انتقلت من كل إمام إلى إمام آخر، وهي موجودة الآن بيد الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام).

ــ 2 ــ

لمّا أخذ موسى (عليه السلام) ألواح التوراة، في جبل سيناء، جاء بها إلى بني إسرائيل في (التيه) فلمّا رآهم عبدوا العجل، غضب أشد الغضب، حتى إنه (ألقى الألواح) من يده تضجراً مما فعله اليهود، وإن كان علم بذلك من قبل ــ بوحي الله تعالى ــ لكن الرؤية أثارت موسى (عليه السلام) أكثر من الخبر. (ولمّا سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون).

ثم انظر إلى عجيب الأمر:

كان بنو إسرائيل هم الذين ألحّوا على موسى (عليه السلام)، بسؤال الله تعالى إنزال كتاب إليهم فيه نظام دينهم ودنياهم، فإنهم ملّوا من عدم النظام الذي كان يسود حياتهم ومن جرّاء الفوضى وعدم وجود منهج لديهم، لكن لمّا جاءهم موسى بالكتاب، بعد تلك المشاكل، لم يقبلوا ذلك الكتاب.

وقد أمرهم موسى (عليه السلام) أن يسجدوا لله شاكرين، دلالة على قبولهم التوراة، لكنهم كرهوا ذلك فلم يسجدوا، فرفع الله قسماً من الجبل، حتى أظلّهم، وقيل لهم: إن لم تسجدوا دلالةً على قبول (التوراة) سقط الجبل عليكم بما فيه هلاككم، فاضطروا إلى السجود، لكن هل خفّف الخوف عنادهم؟ كلا!

إنهم سجدوا بشقّ وجوههم، لا بالجبهة، ينظرون إلى الجبل، هل يذهب إلى مكانه، حتى يرفعوا رؤوسهم، أو يبقى، حتى يبقوا في حالة سجود؟ (وإذ نتقنا الجبل) رفعناه فوق رؤوسهم (كأنه ظلّة) كالسقوف التي تظلّل الإنسان (وظنّوا أنه واقعٌ بهم) فإن قطعة الجبل

المعلقة فوق الرؤوس، تلقي في النفس خوف الوقوع فقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من التوراة (بقوة) في العمل به والالتزام بأوامره (واذكروا ما فيه لعلّكم تتقون). إنهم وعدوا أخذ الكتاب بقوّة، وسجدوا، حتى رجع الجبل إلى مكانه.. لكنهم هل وفوا بما وعدوا؟ كلا!

بل: (ثم تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهكذا (حملوا التوراة ثم لم يحملوها) أخذوها ظاهراً، ولم يعملوا بأحكامها، فكان مثلهم: (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) كتباً من العلم، إنها على ظهر الحمار، لكن الحمار لا يستفيد منها أبداً.

ــ 3 ــ

لقد كان ابتلاء موسى (عليه السلام) باليهود، ابتلاءً عظيماً، فإنهم في نفس الوقت الذي كانوا يعترفون له بالنبوة، ويرون منه الآيات، لا يصدّقون كلامه، لا خفاءً فحسب، بل كانوا يجهرون بذلك جهراً.

ومن ذلك أنّ موسى (عليه السلام) حين أخبرهم بأن الله سبحانه، يناجيه ويتكلّم معه، أنكر جماعة منهم، وقالوا: إنا لا نصدّق قولك وكيف يمكن أن يتكلّم الله معك؟ ولن نؤمن إلا إذا سمعنا نحن كلام الله، فاذهب بنا إلى الطور، حتى نسمع نحن كما تسمع أنت.

وأجازه الله سبحانه في ذلك.. وقد كان الطالبون لهذا الأمر سبعين ألفاً، فاختار موسى منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) أي الوقت المحدود لسماعهم كلام الله تعالى.

فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور، وسأل الله سبحانه أن يكلّمه ويسمع القوم كلامه، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وكلّم موسى، بحيث سمع السبعون كلام الله تعالى.

ولم يكن لكلامه اتجاه خاص ــ كما يكلّم أحدنا صاحبه ــ بل جاء كلامه من فوق ومن تحت، ومن اليمين واليسار، ومن الخلف والأمام، فإنه تعالى لا يتكلّم باللسان، ولا له جهةٌ خاصّةٌ وإنما يلقي الكلام في الفضاء، ولذا يحيط الكلام بالسامع.

ولمّا سمعوا كلامه سبحانه، قالوا: لا نصدّق أن هذا كلام الله، فيجب أن نرى الله عياناً

حتى نؤمن بك، وأنّك كليم الله ونبيّه.. وحيث تمّت عليهم الحجة ولم يبق إلا العناد، أرسل الله صاعقة أرجفتهم وأهلكتهم جميعاً.

لكن موسى (عليه السلام)، خاف أن يقول بنو إسرائيل: إنك لم تكن تقدر على إسماعهم كلام الله، ولذا قتلتهم ومن هذه الجهة طلب من الله سبحانه أن يحييهم. فاستجاب الله سبحانه دعاءه وأحيا السبعين، فرجعوا مع موسى (عليه السلام)، وأخبروا بني إسرائيل بالقصة كلّها (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) حين نزول الصاعقة (فلمّا أخذتهم الرجفة) الّتي أحدثتها الصاعقة (قال) موسى: يا (رب) كيف تهلكهم الآن؟ فإن بني إسرائيل يتهمونني بقتلهم، و(لو شئت) إهلاكهم بسبب عنادهم، لكنت (أهلكتهم من قبل وإياي) فإني لا مانع لي من أن تهلكني إذا اقتضت مشيئتك ذلك.

فاستجاب الله دعاء موسى في إحيائكم يا معاشر اليهود (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون) نعمي وآلائي.

ولم يكن كلام موسى (عليه السلام) حول إهلاك الله اليهود اعتراضاً، وإنما ضراعةً ودعاءً. كما أنه سبحانه لم يبد له في إحيائهم ــ بعد أن لم يعلم، تعالى عن ذلك ــ وإنما عاقبهم حسب عصيانهم، ثم أحياهم حسب المصلحة، واستجابة لدعاء نبيه العظيم موسى (عليه السلام)، وليزيد حجّةً على حجة.

ومما يلفت النظر في هذه القصة:

أن موسى (عليه السلام) مع أنه نبي عظيم من أولي العزم وأصوب نظراً من سائر الناس، وأحسن معرفة بالناس.. لم يكن اختياره للسبعين، اختياراً للمؤمن الصامد في إيمانه، ولذا كفروا بالله، وطلبوا المستحيل، بالإضافة إلى كفرهم بموسى (عليه السلام).. فهل بعد هذا يمكن أن يناط اختيار الواسطة بين الله وخلقه إلى الناس؟؟

ــ 4 ــ

قد يستغرب الإنسان إذا رأى العناد من جماعة من الجهلة، لكن المظنون أن يتبخّر كل استغراب في جنب الاستغراب الذي يحصل للإنسان حين يلاحظ أحوال اليهود!

أسمعت كيف طلبوا سماع كلام الله، وإلا رجعوا عن إيمانهم؟ فقبل موسى (عليه السلام) كلامهم، وسمعوا كلام الله.

ثم.. أسمعت: كيف عاندوا، وقالوا: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً)؟ فأخذتهم الصاعقة، لتمرّدهم وعصيانهم، واحترقوا.

ثم.. أسمعت: كيف طلب موسى (عليه السلام) أن يحييهم الله تعالى، فاستجاب الله له؟

فاسمع الغريب العجيب الآن!:

إن (السبعين نفراً) الذين بعثوا بعد الموت، بدعاء الكليم (عليه السلام)، لم ينفكّوا عن عنادهم وتماديهم في الغيّ، فإنهم لمّا أحياهم الله تعالى، قالوا لموسى (عليه السلام): إنك لو سألت الله أن تنظر إليه لأجابك، وكنت تخبرنا كيف هو؟ فنعرفه حق معرفته.

فأجابهم موسى (عليه السلام): بأن الله سبحانه لا يمكن أن يراه أحد ــ فإنه ليس بجسم وما أشبه الجسم، حتى يقبل الرؤية ــ .

لكن بني إسرائيل أصرّوا على كلامهم، ووقفوا إيمانهم على سؤال موسى (عليه السلام) ربّه. فاضطرّ النبي العظيم لتلبية طلبهم حرصاً على إيمانهم، ولمصلحة أن يسمع الجواب: بالنفي.. فيعرف بنو إسرائيل عدم الإمكان، من كلام الله تعالى. ولذا قال موسى (عليه السلام): (ربِّ أرني أنظر إليك).

ويا لهول المطلب، حين سأل موسى (عليه السلام) هذا السؤال؟ فقد أحاط بموسى (عليه السلام) نارٌ من جوانبه، وظهرت له أفواج الملائكة، تهبط من أبواب السماء، على أيديهم العمد في رأسها النور، يمرّون به، قائلين: يا بن عمران سألت عظيما!!

ولعل ذلك كلّه كان، حتى يحكي موسى (عليه السلام) لبني إسرائيل، فيعرفوا الغلطة الكبيرة التي ارتكبوها.. أو كانوا يرون هذه الأحداث حين صارت.

ــ 5 ــ

وكيف كان الأمر. فقد أجاب الله تعالى عن سؤال موسى (عليه السلام)، بقوله: (لن تراني) لا في الدنيا ولا في الآخرة (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) لكن استقرار الجبل حين إرادة الله سبحانه زواله عن مقرّه، مستحيل، فرؤيته تعالى مستحيل.. ثم إن الله تعالى (تجلّى للجبل) بأن أظهر عليه أثر قدرته وإرادته بتحطيم الجبل

(فلمّا تجلّى ربه للجبل جعله) أي جعل الجبل (دكاً) محطّماً (وخرّ) أي سقط (موسى صعقاً) قد أخذته الغشوة، من هول ما رأى عند اندكاك الجبل (فلمّا أفاق) موسى من غشوته (قال سبحانك) اللهم (تبت إليك) أي أني راجع إليك في وصفك وأمرك، لا اطلب منك ما لا يكون، وإنما كان سؤال لأجل هؤلاء السبعين ــ كما تعلم ــ (وأنا أوّل المؤمنين) بك وبصفاتك، بأنّك لا ترى أبداً.

فــ(قال) الله سبحانه: (يا موسى إني اصطفيتك) واخترتك (على الناس برسالاتي) حيث جعلتك رسولاً (وبكلامي) حيث تكلّمت معك (فخذ ما آتيتك) من الأحكام والألواح (وكن من الشاكرين) لنعمائي.

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء) فإن الصفة العامّة لكتب السماء أن تشتمل على الخطوط العريضة، والقواعد العامّة، وللحياة السعيدة، لا بصورة الإجمال والاحتمال، بل بصورة التفصيل.. ولذا ورد في وصف القرآن (رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ــ على تفسير (الكتاب المبين) بالقرآن ــ .

(فخذها بقوّة) بالعمل بكل صمود واستمرار (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) بالإتيان بالأحسن من مصاديق كلّ أمرٍ ــ مثلاً: الصلاة مع حضور القلب أحسن أنواع الصلاة، فإذا أمرنا بالصلاة.. أتينا بالقسم الأحسن منها: أي مع حضور القلب.. أمّا الذين يخالفون الأوامر ولا يأخذون بأحكام التوراة، فجزاؤهم غداً العقاب والنكال، و(سأريكم دار الفاسقين) الخارجين عن إطاعتي.

ــ 6 ــ

لقد كان ابتلاء موسى (عليه السلام) ببني إسرائيل عظيماً، حتى إن أقرباءه ما كانوا يطيعون أمره ولا ينفّذون أوامر الله سبحانه التي يأتي بها موسى بن عمران. فقد كان (قارون) من أقرباء موسى (عليه السلام)، وكان له صوتٌ حسن، فيقرأ التوراة، قراءة حسنة، وكان يعرف (الكيمياء) وبذلك زادت أمواله زيادةً مدهشة، وكان موسى (عليه السلام) يحبّه لقرابته ودينه وجودة قراءته لكتاب الله.

لكن الشيطان لم يزل يغويه ويزيّن له، حتى أوقعه في الكبر والطغيان، كما قال سبحان: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى).

وفي حين كان بنو إسرائيل في التيه، أمرهم موسى (عليه السلام) بالضراعة إلى الله تعالى، لعلّه سبحانه يستجيب دعاءهم، فينقذهم من البلاء الذي وقعوا فيه بعصيانهم، فقبلت بنو إسرائيل كلام موسى، وأخذوا في الضراعة والابتهال، لكنّ قارون لم يحضر.. وأمره موسى بذلك فأبى.

وفي بعض الآثار: إن موسى أمره بإعطاء الزكاة عن أمواله، فأبى ولم يقبل.

وزاد الأمر إعضالاً، أنّه أخذ يتكبّر على بني إسرائيل بماله وجماله وصورته فكان يخرج عليهم في زينة بين خدمٍ وغلمان، استطالةً وتكبراً. ولم تنفع فيه موعظة موسى (عليه السلام).

بل سبّب ذلك حقداً على الكليم، وراح يبغي له الغوائل، حتى ورد في بعض الآثار: أنه حرّض امرأة مومس بالمال على أن تقف على رأس موسى (عليه السلام)، حين يكون مشتغلاً بوعظ بني إسرائيل فتنسب إلى موسى أنه أراد الزنا بها، وجعل لها من المال مائة ألف درهم إن فعلت ذلك.. لكنّ المرأة كانت أنظف قلباً من قارون، فحين كان موسى (عليه السلام) بين بني إسرائيل جاءت حتى وقفت على رؤوسهم، ثمّ قالت:

يا موسى! إنّ قارون أعطاني مائة ألف درهم، على أن أقول بين بني إسرائيل ــ على رؤوس الأشهاد ــ إنك دعوتني إلى نفسك.. ثم أردفت كلامها قائلة: إنك يا موسى أجل من ذلك، معاذ الله أن تكون دعوتني، فلقد أكرمك الله عن ذلك.

وكيف كان الأمر، فقد اشتد غضب موسى (عليه السلام)، على قارون، ودعا الله أن يستجيب دعاءه في تعذيب قارون. فدخل على قارون في داره، حيث مقرّه، ومحلّ خزائنه وكنوزه، فلمّا رآه قارون عرف آثار الغضب على وجهه، وكيف لا يغضب على من تجبّر واستكبر، وبدل نعمة الله كفراً، وقطع رحمه، فقد أمر قارون ــ استهزاءً بموسى (عليه السلام) ــ بعض خدمه بأن يصب على رأس موسى طبقاً من رماد!!

قال (قارون) لمّا رأى غضب موسى وكان يعرف أنّه (عليه السلام) قادر على الانتقام منه:

أسألك يا موسى بالرحم التي بيني وبينك إلا كففت عنّي؟ لكن الأمر كان قد انتهى، وكان الطلب في غير أوانه (فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا).

قال موسى للأرض: خذيه وكنوزه، فأخذته الأرض إلى ركبتَيه. وأخذ قارون يضرع، وموسى (عليه السلام) يكرّر للأرض الأمر بأخذه. حتى انخسفت الأرض به وبداره وبما عنده من كنوز وأموال.

فلم يبق منه باقية، وانتهى كل شيء، فقد التحق هذا الطاغي الجديد، بالطاغي القديم (فرعون) وزادت في التاريخ عبرة وعظة جديدة لمن يطغى ويتكبّر، كيف يكون مصيره؟

وهنا تبين للذين كانوا يتمنون أن يكون لهم أموال مثل أموال قارون، أن الأفضل عدم مثل هذا المال الموجب للطغيان والخسران.

ــ 7 ــ

(إن قارون كان من قوم موسى) والمؤمنين به (فبغى) قارون (عليهم) أي على موسى (و) قد (آتيناه) أعطيناه (من الكنوز) والخزائن (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) فجماعةٌ كبيرةٌ ــ حتى قيل أنّهم كانوا بين عشرة وخمسة عشر ــ ما كانوا يتمكنون من حمل مفاتيح خزائنه بيسر، فقد كانت المفاتيح ثقيلة، فكم كانت الأموال الموجودة في الكنوز؟؟

(إذ قال له) أي لقارون (قومه) المؤمنون (لا تفرح) بهذه الأموال، فإن المال مظنّة الإهلاك إذ قلّما صار الإنسان ذا مال، ووفى حق الله فيه (إن الله لا يحب الفرحين) بالأمور الدنيوية التي لا ترتبط بالله سبحانه، فإنه سبحانه يحب الإنسان الذي يحب الله تعالى.

ثم قال بنو إسرائيل لقارون: (وابتغ) أي اطلب (فيما آتاك الله) من الأموال (الدار الآخرة) بالإنفاق من مالك في سبيل الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فلست مأموراً بإعطاء كل ما لك لله، بل أعط قسماً لآخرتك، وأبق قسماً لدنياك، فإنه ليس من الله من ترك آخرته لدنياه، ولا من ترك دنياه لآخرته (ولا تبغ الفساد في الأرض) لا تطلب العناد، بمنع الحقوق والتكبّر وما أشبه (إن الله لا يحب المفسدين).

لم يرق كلام الناصحين لقارون، وهل يقبل المتكبّر المتعالي النصح؟

فأجاب القوم قائلاً: إنه ليس لأحد حق في هذه الأموال التي تحت يديّ (قال إنما أوتيته على علم عندي) فأنا بعلمي حصّلت هذه الأموال، لا بمشورة الآخرين، حتى يكون لهم

حقٌ في مالي (أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون) والأجيال (من هو أشد منه) أي من قارون (قوّة وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون)؟ فإن المجرم في كل جيل يهلك بدون أن يحاكم في هذه الدنيا، وإنما محاكمته يوم القيامة.. ألم يعلم قارون هلاك المتكبرين من قبله، فكيف يأمن من الله تعالى؟

إنه لم يكف عن كبريائه، بل (خرج على قومه في زينته) وأبهته وفخفخته، استطالة عليهم، وتكبّراً وعناداً، فلمّا نظر إلى كوكبته القوم (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) بدون التفات إلى الآخرة: (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظّ عظيم)؟ لكن عقلاء القوم، ردّوا الذين تمنّوا هذا التمنّي، قائلين: (ويلكم ثواب الله خيرٌ) من هذه الأموال (لمن آمن) بالله ورسله وما جاءوا به (وعمل صالحاً) بإطاعة أوامر الله والانتهاء عن نواهيه (ولا يلقّاها) أي لا يدرك ذلك الثواب (إلا الصابرون) الذين صبروا على طاعته سبحانه، ورضوا بقضائه.

فلننظر عاقبة (قارون) وما جرّته إليه أمواله، وكبرياؤه (فخسفنا به وبداره الأرض) إذ ساخت الأرض بقارون وداره، التي فيها خزائنه (فما كان له من فئة) جماعة (ينصرونه من دون الله) فهل يتمكن أحد أن ينصر من أراد الله عقابه؟ (وما كان من المنتصرين) هذه حالة قارون المتكبر، وخزائنه التي منع حقها.. فما كان موقف أولئك الذين تمنّوا مكانه، من هذه الحادثة؟

(وأصبح الذين تمنّوا مكانه) أي مكان قارون، بأن يكون لهم مثل ما لقارون (بالأمس يقولون وي) عجباً (كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يوسّع ويضيّق سب حكمته البالغة، وإنما لم يوسّع علينا علماً منه بأن التوسعة مصيرها مصير قارون وأمواله (لولا أن مَنّ الله علينا) بعدم إعطائنا مثل مال قارون (لخسف بنا وي) عجباً (كأنه لا يفلح الكافرون) بأمر الله سبحانه. وإلى هنا تنتهي قصّة (قارون) وتبقى عبرة للأثرياء والمتكبّرين إلى يوم القيامة.

ــ 8 ــ

وقعت في زمان موسى (عليه السلام) قصّة طريفةٌ، في بني إسرائيل، وذلك أن رجلاً قتل ابن عمّ له. لتنازع وقع بينهما على امرأة، ثم جاء القاتل بالمقتول إلى موسى (عليه السلام) قائلاً: إنه ابن عمّي مقتولاً، فاطلب قاتله؟

فأوحى الله تعالى إلى موسى يأمرهم أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا المقتول ببعض تلك البقرة، فعلوا ذلك فأحيا الله المقتول، فأخبر بأن قاتله هو ابن عمّه، الذي جاء به مكراً وخداعاً، فقتله موسى (عليه السلام)، قصاصاً، فقد كان رجل من خيار بني إسرائيل وعلمائهم، خطب امرأة، فرغبوا فيه، وخطبها في نفس الوقت ابن عمّ لذلك الرجل، وكان فاسقاً، فرغبوا عنه، وأخيراً زوّجت المرأة للخير، فحسده ابن عمّه وحقد عليه، فاختفى في طريقه، ولمّا أن مرّ الخير، قتله الفاسق غيلةً.. ثم حمله إلى موسى (عليه السلام)، قائلاً: هذا ابن عمّي قد قتل ــ وأراد بذلك أخذ ديته أيضاً ــ .

فاجتمع بنو إسرائيل عند موسى لفصل القصّة.. وصادف هذا الحادث، أمر ولد بارٌ بأبيه، كانت له سلعةٌ، وأراد بيعها، وكان في غرفة مقفلة، والمفتاح تحت راس أبيه النائم، لكن الولد كره أو يوقظ الأب لأجل ربح السلعة وردّ المشتري.. فلمّا استيقظ الأب، وعرف ما عمله الولد، أعطاه بقرة كانت له جزاء لبرّه وحسن أدبه.

لقد شكر الله للولد برّه بأبيه، فأوحى إلى موسى (عليه السلام)، بشراء بقرةٍ لها علامات مخصوصة، وكانت تلك العلامات منحصرة في بقرة الولد، فلمّا أرادوا شرائها لم يبعها إلا بملء جلدها ذهباً ــ ولعلّ ذلك كان بإيعاز من موسى (عليه السلام) ــ (إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) ليتبين القاتل (قالوا أتتخذنا هزواً) فأي ربط بين ذبح البقرة، وظهور القاتل؟ (قال) موسى (عليه السلام): (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) بأن آمركم بشيء عبثاً؟ (قالوا): إذن فــ(ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي)؟ أي كيف يجب أن تكون البقرة؟فقد أخذوا يشدّدون على أنفسهم، فشدّد الله عليهم ولو أنهم حين أمروا بذبح البقرة، أخذوا أية بقرة وذبحوها، كان كافياً في الامتثال، ولم يحتاجوا إلى دفع مبلغ باهظ.

(قال) موسى (عليه السلام): (إنه) سبحانه (يقول إنها بقرةٌ لا فارضٌ) كبيرة السن (ولا بكرٌ) صغيرة السن (عوانٌ) وسط (بين ذلك) الكبر والصغر (فافعلوا ما تؤمرون) من ذبح

البقرة (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها)؟ فقد عرفنا سنّها (قال) موسى (عليه السلام): (إنه) تعالى (يقول إنها بقرة صفراءٌ فاقع) حسن الصفرة (لونها تسرّ الناظرين) إلى البقر.

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي)؟ فقد عرفنا عمرها، ولونها، وبقي أن نعرف عملها، هل تكون عاملة أم لا؟ (إن البقر تشابه علينا) فلا ندري الوصف المطلوب منّا في البقرة (وإنا إن شاء الله لمهتدون) في إطاعة أوامر الله تعالى.

(قال) موسى (عليه السلام): (إنه) عز اسمه (يقول إنها بقرة لا ذلول) أي لم تذلّ بالعمل (تثير الأرض) بأن لا تكون تكرب الأرض لغرض الزرع (ولا تسقي الحرث) بأن لا تكون عاملة (مسلّمة) قد سلمت من العيوب (لا شية فيها) أي لا يكون فيها لون مخالفٌ للونها.

(قالوا الآن) وبعد ذكر هذه الأوصاف (جئت) يا موسى (بالحق) الواضح. (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أي كانوا بعيدين عن ذبح مثل هذه البقرة، لغلاء ثمنها، فقد أرادوا عدم شرائها، وراجعوا موسى في ذلك، فقال لهم: لابد أن تفعلوا، فاشتروها وذبحوها.. ولعلّ غلاء الثمن كان تعليماً لهم بأن الواجب إطاعة أوامر الله تعالى، مهما كلّف الأمر.

(وإذ قتلتم) يا بني إسرائيل (نفساً فادّارأتم فيها) أي تدافعتم، فقال كل واحد منكم: أنا لم أقتله (والله مخرج ما كنتم تكتمون) من عرفانكم بالقاتل (فقلنا اضربوه) أي المقتول (ببعضها) أي ببعض أجزاء البقرة.. فضربوا ــ كما أمروا ــ فأحياه الله، وأخبر أن ابن عمه قتله، فاقتص منه (كذلك يحيي الله الموتى) فكما قدر سبحانه على إحياء هذا المقتول، يقدر على إحياء البشر يوم القيامة (ويريكم آياته لعلّكم تعقلون).

وفي هذه القصة عبر وعظات لمن أراد الاعتبار.

ــ 9 ــ

وفي أحوال موسى (عليه السلام) قصة طريفة، وقعت بينه وبين نبي الله الخضر (عليه السلام):

فقد أمر الله موسى أن يتبع الخضر، وكانت الغاية من هذا الاتباع، موعظة موسى بسبب الخضر، ولا عجب في ذلك، فقد كان رسول الإسلام (عليه وعلى آله الصلاة

والسلام) يقول لجبرئيل (عليه السلام): عظني.. فلا يمكن أن يقال: كيف يمكن أن يكون المتعلّم ــ وهو موسى (عليه السلام) أفضل من المعلم ــ وهو الخضر (عليه السلام)؟

لقد تبع موسى الخضر، واشترط عليه الخضر أن لا يسأله عمّا يفعله، إن أراد دوام الصحبة، وقبل موسى الشرط، فخرجا يمشيان، حتى وصلا إلى سفينة، فركباها، وأخذ الخضر يثقب السفينة، فاعترض عليه موسى لماذا يخرق السفينة؟.. ثم لمّا نزلا من السفينة لقيا ولداً يمشي، فقتله الخضر فأثار هذا العمل موسى (عليه السلام) فاعترض عليه، لم قتل ولداً بريئاً؟ ثم دخلا قريةً وهما محتاجان إلى الطعام، فلم يطعمهما أهل القرية، ثم رأيا جداراً مائلاً.. فأخذ الخضر يرمّمه ويصلحه، فاعترض عليه موسى (عليه السلام): لماذا رمّم الجدار بدون أخذ الأجرة، ليستفيدا منها في شراء الطعام؟

وهنا فارق الخضر موسى، لأن شرط الصحبة انتهى، باعتراضات موسى (عليه السلام)، وأخبره عن مبرّرات عمله:

فخرق السفينة كان لمصلحة أصحابها، إذ لو وصلت السفينة سالمةً إلى الجرف كان الملك الموجود في ساحل البحر، يأخذ السفينة الصالحة، أمّا المخروقة فلم يكن يرغب فيها.

وقتل الولد إنّما كان درءاً لفساد كبير، لأنه علم أنّه إن بقي الولد فسد وأفسد والديه، فكان قتله قبل الإفساد خيراً للولد ولوالديه، فالله يعوّض عن الولد، بولد آخر صالح.

وترميم الجدار إنما كان لحفظ كنزٍ تحته لأيتام فلو ترك الجدار حتى سقط، لم يعرف الأيتام ــ إذا كبروا ــ محل الكنز، ويضيع مالهم المدّخر لهم.

وهذه القصة الطريفة، إنما كانت بعد أن قال موسى (عليه السلام) لوصيه (يوشع): إن الله أمرني أن أتبع رجلاً عند مجمع البحرين، فتزوّد يوشع بسمك مملّح، فلمّا بلغا المكان، أراد يوشع غسل السمك بالماء، فأحيا الله السمكة. وانسابت في الماء ــ وكان هذا علامة وصولهما إلى موضع الخضر (عليه السلام) ففحصا في ذلك الموضع، حتى لقيا الخضر.. ثم اتبعه موسى (عليه السلام) وحدث ما حدث.

ــ 10 ــ

(وإذ قال موسى لفتاه) أي الشاب الذي كان يلازمه، وهو وصيه يوشع (لا أبرح) لا أزال أسير حتى أصل إلى المقصد (حتى أبلغ مجمع البحرين) محل التقاء البحر الأبيض والبحر الأحمر أو غيره (أو أمضي حقباً) أي أحقاباً وأزمنةً طويلة، إن لم أظفر بمقصدي عند مجمع البحرين..

وهكذا سارا (فلمّا بلغا مجمع بينهما) أي مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أي السمكة، فإنها عاشت بعد موتها وطفرت في الماء، ونسي يوشع القصة، فلم ينقلها لموسى (عليه السلام) (فاتخذ) الحوت (سبيله في البحر سرباً) أي مسلكاً يذهب فيه.

(فلما جاوزا) موسى ويوشع، مجمع البحرين (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) وتعباً، فلنأكل السمكة، لنتقوى في مواصلة السير.. وهنا تذكّر يوشع قصة الحوت فــ(قال) لموسى: (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة)؟ هل تذكر وقت نزولنا عند الصخرة في مجمع البحرين (فإني نسيت الحوت) حتى غاب في الماء (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أي كان الشيطان السبب في نسياني له (واتخذ) الحوت (سبيله في البحر عجباً) أي اتخاذاً عجباً فإنه استعاد حياته وانساب في الماء.

(قال) موسى لمّا سمع هذا الخبر: (ذلك) المكان الذي ظهرت فيه هذه الآية، (ما كنّا نبغ) أي نطلب ونقصد الوصول إليه (فارتدّا) رجعا أي موسى ويوشع (على آثارهما) أي الآثار التي كانت لهما في الأرض يريد الرجوع في نفس الطريق (قصصاً) من قصّ بمعنى اتبع الأثر.

(فوجدا) هناك عند انسياب السمكة (عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا) أي فضلاً ــ فإن الفضل رحمة من عنده سبحانه ــ (وعلّمناه من لدنّا علماً) علماً لدنياً بدون حاجة إلى التعليم وكان ذلك العبد خضرٌ (عليه السلام) ــ (قال له موسى هل أتبعك) يا خضر! (على أن تعلمني مما علّمت رشداً) أي من العلوم الرشيدة، التي لها رشد ونموّ.

(قال) الخضر: (إنك) يا موسى (لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)؟ فإنك لا تقدر أن ترى أعمالاً لا تعرف وجه الجواز فيها (قال) موسى (عليه السلام): (ستجدني) يا خضر! (إن شاء الله صابراً) لما تعمل (ولا أعصي لك أمراً) فلا

أخالفك فيما تأمرني به من الصبر.. وقد علّق موسى (عليه السلام) صبره بمشيئة الله تعالى، لكن الله لم يشأ، إذ لم يلق في نفسه العزيمة القوية على الصبر.

(قال) الخضر (عليه السلام): (فإن اتبعتني) يا موسى! (فلا تسألني عن شيء) تراه (حتى أحدث لك منه ذكراً) في المستقبل بأن أبين سبب أعمالي لك.

وعلى هذا القرار، أخذا يسيران (فانطلقا) موسى والخضر (عليهما السلام) (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) أي ثقب الخضر السفينة.

(قال) موسى (عليه السلام): (أخرقتها لتغرق أهلها)؟ لكن الخضر كان إذا خرق موضعاً، جعل في مكانه ثوباً أو ما أشبه، ليقف أمام الماء (لقد جئت) يا خضر! (شيئاً إمراً) أي منكراً غير مألوفٍ.

(قال) الخضر: (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً)؟ عرف موسى أنه تعجّل في الأمر، ممّا لا ينبغي له ذلك، فاعتذر، وقال: (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني) أي لا تكلّفني (من أمري عسراً) بأن تكلّفني ما فيه المشقّة علي. قبل الخضر كلام موسى (عليه السلام) واعتذاره (فانطلقا حتى إذا لقيا) موسى والخضر (غلاماً فقتله) الخضر.

(قال) موسى (عليه السلام) معترضاً على هذه القتلة بدون سبب ظاهر: (أقتلت) يا خضر! (نفساً زكيّة) طاهرة عن الآثام (بغير نفس) أي بدون أن يكون قتل الغلام نفساً حتى يستحق القصاص؟ (لقد جئت) يا خضر (شيئاً نكراً) أي منكراً غير معتاد.

(قال) الخضر: (ألم أقل لك) يا موسى (إنّك لن تستطيع معي صبراً)؟

لكن موسى اعتذر ثانياً (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) واترك صحبتي (قد بلغت) يا خضر (من لدنّي عذراً) أي قد أعذرت فيما بيني وبينك.

(فانطلقا) موسى والخضر يمشيان (حتى إذا أتيا أهل قريةٍ) قيل: هي قريةُ ناصرة (استطعما أهلها) طلبا منهم الطعام (فأبوا) أي أهل القرية (أن يضيّفوهما) يقبلوهما ضيفين، (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ) أي يسقط، وكان مائلاً للانهدام، (فأقامه) الخضر ورمّمه.

(قال) موسى (عليه السلام): (لو شئت) يا خضر أن تعمل هذا العمل (لاتّخذت عليه أجراً) حتى ننتفع بأجره.

(قال) الخضر (عليه السلام): يا موسى! (هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) ولماذا فعلت الأشياء التي فعلتها..

(أما السفينة) التي خرقتها (فكانت لمساكين يعملون في البحر) يتعيّشون بهذه السفينة، (فأردت أن أعيبها) بقلع بعض ألواحها ليتخلّى عنها الملك الغاصب فيها، وتبقى لأصحابها (وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينة) صالحة (غصباً).

(وأما الغلام) الذي قتلته، بلا ذنب ظاهرٍ (فكان أبواه مؤمنين فخشينا) إن بقي في الحياة (أن يرهقهما) أي يسبب لأبويه (طغياناً كبيراً) وقد كان الخضر (عليه السلام) علم بذلك، (فأردنا) بقتل الغلام (أن يبدلهما) أي يعوض للأبوين (ربّهما خيراً منه) أي من هذا الغلام (زكاةً) أي طهارةً (وأقرب رحماً) أي أرحم بالأبوين، وكان هذا إخبار من الخضر (عليه السلام) بإرادة الله تعالى.

(وأمّا الجدار) الذي أقمته (فكان لغلامين يتيمين في المدينة) أي في المدينة التي استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما (وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً) فدفن هذا الكنز للغلامين (فأراد ربك أن يبلغا) أي الغلامان (أشدهما) أي قوتهما بأن يكبرا ويبلغا، (ويستخرجا كنزهما) فلو سقط الجدار حرما من الكنز، لذهاب الأثر بسقوط الجدار (رحمةً من ربك) بهما (وما فعلته) أي الأمور الثلاثة (عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً).

ثم فارق الخضر موسى (عليهما السلام)، وذهب كلّ واحدٍ منهما في طريقه الخاص به.

ــ 11 ــ

لقد لقي موسى (عليه السلام) من بني إسرائيل كل عنت وإرهاق، طول حياته، وقد كانت حياة موسى (عليه السلام) حياة حافلةً بالمتاعب والغرائب، من قبل الولادة إلى حين الممات، وقد خلّف عليه الصلاة والسلام بعده أمّةً عجيبةً غريبةً، هم اليهود، وهؤلاء وإن كذبوا في نسبتهم إلى هذا النبي العظيم، فإن موسى منهم براء، إلا أنّهم ــ على كل حال محسوبون عليه ــ .

وأخيراً مات موسى (عليه السلام) في (التيه) ودفن هناك.. كما أن أخاه هارون (عليه السلام) مات في التيه أيضاً، ودفن فيه.

وفي قصّة هذا النبي العظيم أعظم عبرةٍ لمن أراد الاعتبار. وهذه القصّة، منذ زمان موسى إلى هذا اليوم، من أضخم القصص العالميّة، وفيها ألوان من الحركة والحياة، والمناقضات والأضداد.

وقد اختصرنا القصة ــ في هذا الكتاب ــ ليقرأها من لا يتمكّن من الرجوع إلى الكتب المفصّلة، ومع ذلك اضطررنا إلى تخصيص قصص أخرى عن موسى (عليه السلام)، وهي:

(موسى عليه السلام)، (الكليم عليه السلام وفرعون)، (موسى عليه السلام في البحر، (بنو إسرائيل في التيه) و(الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل).

ونسأل الله سبحانه أن يتقبّلها بقبول حسن، وينفعنا وسائر المؤمنين بها ويوفقنا لإتمام (القصص الحق) في كتب أخرى، وهو الموفق المستعان.

موسى (عليه السلام) في البحر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

ــ 1 ــ

لقد لقي بنو إسرائيل في مصر العنت والإرهاق من كبت فرعون وظلمه فانهم وإن أمِنوا على أنفسهم ــ نوعاً ما ــ من القتل، بعد أن أرى موسى لفرعون الآيات، من الدم، والقمّل، والضّفادع، وغيرها ــ إلا أن فرعون العنيد ، وأتباعه الكفرة ما زالوا يضايقون موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل، حتى ضاقوا بالأمر ذرعاً.

إن الأغلبية السّاحقة من المصريّين كانوا ينظرون إلى موسى والمؤمنين شزراً، وكانوا يشبعونهم إهانات، والمؤمنون صابرون صامدون، لكن إلى متى؟ وكثرت الشكوى إلى موسى حول هذا الموضوع.

ولكن ما هو العلاج؟

وجاء الفرج.. وذلك بأن أوحى الله تعالى إلى موسى بالخروج من مصر، وهل المكان منحصرٌ في مصر؟ كلاّ! إذن إلى أين؟ وكيف؟ وهل هذا الأمر سهل؟ كلاّ! فإنه خروج

مما يقارب الثلاثة أرباع المليون، تاركين وراءهم مكاسبهم ومنازلهم، وكلّ ما يتعلّق بهم من أصعب الأمور.

غير أن الاضطرار قد يكلّف الإنسان رهقاً.

ــ 2 ــ

قرر موسى ــ حسب أمر الله تعالى ــ الهجرة من مصر مع بني إسرائيل أجمع، ويا له من قرار خطير!

ثم هل يمكنهم الفرار من يد الطاغية فرعون، وهو يرصدهم، ويبغي لهم الغوائل؟ لكن قدرة الله تعالى أكبر من كل شيء وتدبيره أحسن من كل تدبير، لقد أفجع سبحانه آل فرعون بنفوس أعزّائهم، فمات كثيرٌ منهم، مما أشغل بالهم، وأخذوا في النّواح والنّدبة لأعزائهم.

وهنا حان الوقت ليفرّ بنو إسرائيل من مصر، حين اشتغال القبط بأنفسهم وكان الذين يريدون الفرار، يقاربون ثلاثة أرباع المليون، وفي ليلة الميعاد المقرّر خرج هذا الجمع الغفير، تحت ظلام الليل، وأسرعوا من المدينة مع موسى وهارون أحدهما يقود الجمع، والآخر يسوقهم، لئلا يفرط منهم، ولا يسير أحد بدون قيادة.

وهكذا ساروا بكل سرعة وهدوء، حذرين خائفين، وإن جاسوساً واحداً لفرعون يكفي لإدراك الطلب.

وهل من الممكن أن يسير الجمع الكثير بدون أن ينتبه قبطي واحد؟ وهل من الممكن الإفلات من قبضة فرعون الحديدية، الذي كان يعتبر هؤلاء ــ إن ظفر بهم ــ عبيداً آبقين؟

وفي أثناء السير ــ والذعر قد أخذ منهم كل مأخذ ــ إذا بهم يصطدمون بالبحر يا لها من مفاجأة! ماذا يصنعون؟ هل يرجعون أو يبقون؟ وكلا الأمرين فيه خطرٌ وأي خطر؟ لا بد وأن يدركهم فرعون، وهناك العذاب والتنكيل.

ــ 3 ــ

لمّا رأوا البحر أمامهم، (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) يدركنا فرعون وجنوده.

(قال) موسى: (كلاّ إن معي ربّي) يحفظني، ولا يكلني إلى الأعداء فــ(سيهدين) طريق الخلاص ممّا أمامنا من البحر، وممّا وراءنا من فرعون.

وهنا جاءتهم النجدة من الله تعالى، فأوحى إلى موسى: (فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى) فضرب موسى (عليه السلام) عصاه بالبحر، فانجاب الماء، وظهرت في البحر طريقٌ، وكان طول البحر الذي يلزمهم عبوره (أربعة فراسخ) فيا للهول، وقف الماء كأنه جمد، في حافتي الطريق، وفي الوسط طريق لاحب.

خاف أصحاب موسى من العبور قائلين: كيف نعبر في الوحل؟ فأرسل الله الرياح، وأشرقت الشمس في الطريق فيبست، ثم ماذا؟

قال أصحاب موسى: إنا لا نعبر في طريق واحد، ونحن اثنتا عشرة قبيلة، فمن يتقدم ومن يتأخّر؟

فضرب موسى عصاه بالبحر حتى صار اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق والماء بين الطرق كالحاجز.. وهل من عذرٍ بعد؟

نعم.. قالوا لموسى كيف نعبر وبعض الأسباط لا يرى السبط الآخر، ولعل أذى يصيبه، لأن الماء حاجز بين الطرق؟

ورحابة صدر موسى العظيم تقبل حتى هذا العذر التافه، ويجعل له حلاً، إذ أشار موسى بعصاه فصارت الحواجز كأنها شبابيك، يتمكن كل سبط أن يرى سائر الأسباط طول الطريق.

ــ 4 ــ

(انفلق) الماء ببركة عصا موسى (فكان كل فرق كالطود) أي الجبل العظيم فانسابت القبائل في الطريق المهول، إن الأرض جافةٌ، والشمس مشرقةٌ عليهم، وهم كثرةٌ هائلة، يحدث بعضهم بعضاً، وكلّهم مطمئنّو القلب بحكمة القائد والسائق، واثقين بوعد الله ولطفه.

ولكن هل يبعث ذلك كله الاطمئنان الكامل؟ كيف والماء ماء، والبحر بحر، والطريق طويل، إنه ليس ذراعاً وأذرعاً، وإنما يبلغ أربعة فراسخ؟ وممّا زادهم قلقاً وارتباكاً، ما لمحوه من بعيدٍ من الجيش اللجب العرمرم، الذي قاده فرعون لإدراكهم.

فقد عرف فرعون بعد لأيٍ أن بني إسرائيل نزحوا عن المدينة، فتعجّب إلى أين ذهبوا؟ وبعد التحقيق تبين أنهم فرّوا ليلاً في اتجاه البحر فثار فرعون وهيّأ جيشاً ضخماً، قوامه مليون وستمائة ألف جندي.

واطمأنّ فرعون بالنصر، فإن الأمر لديه واضحٌ كل الوضوح، إنه ليست هناك سفن تقلّ أصحاب موسى عبر البحر، ولا طاقة لبني إسرائيل حتى يقاوموا جيش فرعون المنظم المسلّح، فما هي إلا عشية أو ضحاها، حتى ينتقم من الفارّين أشد انتقام؟

وهكذا جاء فرعون حتى وصل إلى البحر وهنا رأى العجب! هاهي المياه تراكم بعضاً على بعض، حتى فتحت الطرق! ما أغرب هذا الأمر! وما العمل؟

خاف قوم موسى قائلين: (إنا لمدركون). لكن موسى لم يخف إنه واثق بفضل الله ونجاته. ووصل أصحاب موسى إلى منتصف البحر، حين وصل فرعون إلى أوّله.

ــ 5 ــ

لقد خاف فرعون عاقبة الأمر، ولم يدر ماذا يصنع؟ أيرجع؟ وفي رجوعه الفشل الذريع، أم يبقى؟ وما فائدة البقاء؟ أم يسير في البحر وهو لا يأمن الغرق؟ إنه يعلم أنّ الأمر معجزة موسى (عليه السلام)، لكن هل بإمكانه أن يظهر ذلك لقومه، وهو يقول: أنا ربّكم الأعلى؟

وأخيراً قاده غروره، إلى أن يقول لقومه: إن انفلاق البحر معجزة لي، ولمّا علم بأني قاصدٌ صوبه، انجاب إجلالاً لكبريائي.

وهل انطلت الكذبة على أصحابه؟ ذلك ما لا نعلمه، وإن كنّا نعلم أن الأذكياء من أصحاب المستبدين، يعرفون كل شيء، ولا يتمكنّون أن يتكلّموا بكلمة!

تقدّم منجم فرعون قائلاً له: لا تدخل البحر فإنه خطر. وتوقّف فرس فرعون، فلم يدخل البحر.

ومن هناك أراد موسى أن يضرب بعصاه البحر خلفهم، ليرجع الماء كما كان، فلا يلتحق بهم فرعون.

لكن كل ذلك لم يحل دون إرادة الله سبحانه.

فلقد أوحى إلى موسى قائلاً: (اترك البحر رهواً) ساكناً حتى يدخله فرعون وجنده (إنهم جند مغرقون). ولم يبال فرعون بقول منجّمه، إذ أبى ذلك غروره وكبرياؤه.

وركب جبرئيل (عليه السلام) (رمكة) فدخل في البحر أمام حصان فرعون.. وتبع الحصان الرّمكة، فدخل فرعون، ودخل الجيش وراءه. وسار الجمعان أصحاب موسى، وأصحاب فرعون، وليس الفاصل بينهم، إلا ما يقارب نصف البحر، وكلّ قلق خائف: أصحاب موسى من العدوّ، وأصحاب فرعون من الغرق.

ــ 6 ــ

وصل أصحاب موسى إلى شاطئ البحر مخلفين وراءهم البحر بطرقه، والعدو الذي يتبعهم حثيثاً.

ووصل فرعون وأصحابه إلى وسط البحر...

وهنا، أمر الله الماء أن يرجع كما كان، وإذا بجبال الماء تلفُّهم في أعماق البحر، وإذا بهذا الجيش الكثيف يعلو وينزل في الماء، كأنه كرات بيد صبيان، وإذ أدرك فرعون الغرق (قال آمنت إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) فقد انجاب عنه سحاب الغرور، وظهر لديه عجزه وحقارته، فقال: (وأنا من المسلمين).

وهل ينفع هذا الإيمان؟ فإنه (ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن).

ولذا ظهر له جبرئيل (عليه السلام) قائلاً: (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) لا، لا، لا ينفع مثل هذا الإيمان في النجاة من عذاب الآخرة، وضرب على فمه بكتلةٍ من (الحماة).

لكن هل يلفّ البحر جسد فرعون؟ كلا! إن الناس اعتادوا أن يزعموا بقاء العظماء والمتجبّرين على حد سواء، ولذا ظنّ بنو إسرائيل الذين ملأ قلوبهم جبروت فرعون: أنه لم يمت ولم يغرق، وهكذا زعمت البقية الباقية من القبط الذين لم يخرجوا مع فرعون لإدراك موسى.

ولذا أبقى الله جسد فرعون قائلاً: (فاليوم ننجيك ببدنك) بعد إزهاق روحك (لتكون لمن خلفك آية) وعلامة على هلاكك، وأنك لم تكن ربّاً ــ كما كنت تقول ــ وهل يغرق الرب؟

ــ 7 ــ

لقد غرق فرعون وآل فرعون، و(كم تركوا من جنّات) بساتين ونخيل، (وعيون) مياه جارية، (وزروع ومقام كريم) من قصور وبيوت ومساكن، (ونعمة كانوا فيها فاكهين) بكلّ سلام ودعة (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) من بني إسرائيل وغيرهم.

ومن طريف ما يحكى: أن امرأة من بني إسرائيل لما عبروا البحر، جلست على الماء تغسل بعض حاجاتها، وإذا بها ترى جثّة فرعون، وضربها الماء حتى أتت الجثّة قرب المرأة، فأخذت المرأة تقتطع بعض الجواهر التي علّقها فرعون في لحيته وتذكّرت هناك قصّة عذابها على أيدي عمّال هذا الطاغية:

فقد كان أمر فرعون جلاوزته بتعذيب بني إسرائيل بأنواع العذاب لعلّهم يرجعون عن الإيمان بإله موسى. تخلّصاً من العذاب، فقد كانوا (يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم) فكانت الجلاوزة تسخّر النساء لأعمال شاقة، حمل الطين وما أشبه على السلالم، إلى السطوح.

وكانت هذه المرأة ــ صاحبة القصّة ــ ممن شملهم العذاب، فقد سخّرت ذات مرّة لرفع الطين، وكانت حاملاً، وفي رجلها قيدٌ، لئلا تهرب، فأدّى الحمل والقيد والطين إلى سقوطها عن الدرج، فرضّت عظامها وأسقطت جنينها.. فرفعت رأسها، وهي مذهولة، وخاطبت ربّها: هل أنت نائم يا رب؟

واليوم حيث أخذت تقتطع جواهر لحية فرعون الغريق، ذكرت القصة، وسمعت منادياً غيبيّاً يجيبها، عن كلامها ذاك: (لا، لسنا نائمين)!!

ــ 8 ــ

لقد غرق الطاغية فرعون بعد ما فسد وأفسد، وضلّ وأضلّ، وطغى وتجبّر، فأين فرعون، وأين جلاوزته، وأين جلاّدوه، وأين سجونه، وأين أعوانه وأنصاره؟؟

بل أين صرحه المدهش؟ فقد (قال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) وموسى كاذبٌ في مقالته أن للكون إلهاً (فأوقد لي يا هامان على الطين) أوقد النار على الطين، ليكون أجرّاً وجصّاً، (فاجعل لي صرحاً) قصراً عالياً في الهواء. فأصعد إلى السطح (لعلّي أطّلع إلى إله موسى) وقد ظنّ فرعون أنّ الله مقرّه السماء جاهلاً أو متجاهلاً

أنه لا مكان لله تعالى، كما أنه لا زمان له سبحانه (وإني لأظنه) أي أظن موسى (من الكاذبين) في قوله إن للكون إلهاً.

وهكذا أمر فرعون وزيره (هامان) وامتثل هامان، فسخّر ما يقارب المائة ألف من أهل مصر، لبناء صرح لم ير مثله في العلو والارتفاع، حتى تم البناء، وصعد فرعون وهامان سطح القصر، ثم هيأ (هامان) مهداً ذا أربعة قوائم صاعدة فوقه، وأربعة أساطين نازلة تحته وهيأ أربع نسور قويّة، وربطها بالأساطين، وعلّق فوق القوائم أربع ذبائح، وجوّع النسور.

ثم جلس فرعون وهامان في المهد، في أعلى سطح الصّرح، فأخذت الطيور في الطيران كأنها تحاول الوصول إلى الذبائح، حتى بلغ المهد مبلغاً كبيراً في الارتفاع. وهناك لم يريا إلا السماء والأنجم، حيث جنّهم الليل ــ وزاد خوفهما من الصعود أكثر.. فقلّبا وضع النسور واللحوم، بالبكرات والحبال التي كان هامان قد هيأها لمثل هذه المهمّة، إذ نقل النسور من الأساطين إلى القوائم، ونقل اللحوم من القوائم إلى الأساطين.

والنسور الجائعة، رأت اللحم في أسفل فأخذت في الهبوط لتصل إليه سدّاً لجوعتها، وهكذا نزل المهد، ولم يظفر فرعون ببغيته.

لقد ذهب فرعون الطاغي، وذهب أتباعه وجلاوزته، وذهبت كنوزه وقصوره، وذهب صرحه الذي سخّر له العمال الكثيرين، ليطّلع إلى إله موسى ويشاطره ــ بزعمه ــ الملك والحكم!

ورجع البحر رهواً كما كان، كأنه لم يَحْو في بطنه شيئاً من ذلك الجيش اللّجب، بعدده وأسلحته ومعدّاته. ولم يبق إلا جثّة فرعون الهامدة، على رابية قرب البحر حيث قذفته الأمواج (ليكون لمن خلفه آيةً) وعبرة، يعتبر به الجبابرة.

ويقال إن إحدى جثث الفراعنة الموجودة في متحف القاهرة هي جثّة هذا الرجل الطاغي، وسواء كان الخبر صدقاً أم مخالفاً للواقع، فقد لفت فرعون وقومه لعنة الأبد، وبقي أمثولةً للاستبداد والكبر، حتى إن الناس اشتقّوا لفظة (تفرعن) من اسمه أي طغى وتجبّر.

وبقي موسى (عليه السلام) وقومه المؤمنون الصابرون، مثلاً أعلى لكل فضيلة.

ــ 9 ــ

لقد عبّر بنو إسرائيل البحر في سلام، وهاهم يرون أمام أعينهم غرق ألدّ أعدائهم، والمعاونين له في إيذائهم، فقد انقضى كلّ شيء، وانتهى أمر فرعون.

فلننظر إلى موسى وقومه..

فمن غريب الأمر أن يكون بنو إسرائيل، بعد هذا الاضطهاد والاستعباد، وبعد تلك المعجزات والغرائب، لم تتبلور في نفوسهم روحيّة التوحيد، فإنهم بعد ما خرجوا من البحر، (أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)! وماذا يقول موسى العظيم لهؤلاء القوم؟ (قال موسى إنكم قوم تجهلون) وهل بعد هذه الآيات محلٌّ للكلام؟ لكن قد أُشرِب في قلب جماعة منهم حب الأوثان أليسوا قد عبدوا العجل بعد مدة أخرى أيضاً؟

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى..

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) ينظر إليهم فرعون بنظر الضعف والمهانة (مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) فقد صارت أراضي مصر وأراضي سوريّا، تحت سلطة موسى وقومه.

(وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) فقد دمّر الله سبحانه قصور فرعون، وبالأخص صرحه الذي بناه له (هامان).

وذلك بأن ضرب جبرئيل (الصرح) بجناحه، فصار دكّاً ولم يبق منه أثر.

أما مصر: فبعد أن هلك فرعون، بعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كل جند اثنا عشر ألفاً، إلى مدائن فرعون ــ ولعل البعث كان بالسفن ــ وتلك المدائن كانت خالية من أهلها، لم يبق منهم إلا النساء والصبيان والزمنى والمرضى والهرمى.

وجعل الآمر على أحد الجندين (يوشع بن نون) وعلى الجند الآخر (كالب بن يوفنا) فدخلوا بلاد فرعون.

هاهي البلاد خالية! وهاهو محل القوم الذين طالما عتوا وطغوا وبغوا في الأرض بغير حق! وهاهي قصور فرعون وبساتينه وحدائقه، خلت من الطاغية الذي سام هؤلاء أشدّ

ألوان العذاب، فكان (يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم) تجاوب السوم في أرجائها، عوض المستبد العاتي الذي كان ينادي بملء فمه (أنا ربكم الأعلى) و(ما علمت لكم من إله غيري).

إنه من الطبيعي أن تجيش في صدور بني إسرائيل الذين يرون كل ذلك ألف جائشة وجائشة، ويتذكّروا أيّامهم الماضية التي قاسوها، تحت الذل والاستعباد، والظلم والاضطهاد.. كيف أخرجوا بغير حق إلا أن يقولوا: ربّنا الله؟ وكيف اضطرّوا إلى ترك بلادهم بدون مبرّر؟!

وكيف كان الأمر، فهل أمروا من قبل النبي الظافر موسى بن عمران (عليه السلام) بأخذ الغنائم، ولذا حملوا كنوزهم وأموالهم، وما أقلّت الحمولة من أثاث ورياش، كما أنهم باعوا قسماً مما وجدوا له مشترياً.

أما الجيشان فقد قفلا راجعين إلى موسى، بعد ما خلّف (يوشع) رجلاً صالحاً على تلك البلاد، ليملأ الأرض بصوت التوحيد، بعد ما ملأها فرعون بصوت الكفر والوثنية.

ــ 10 ــ

إلى أين مسير هذه الجماعة الغفيرة التي تقارب ثلاثة أرباع المليون؟

إن مثل هؤلاء الجماعة لابد وان يسكنوا بلداً يسعهم، ولكن أي البلاد يستطيع أن يرحب بمثل هذه الكثرة العظيمة؟ وكيف يتمكّنون من أن يعيشوا في بلاد غربةٍ بدون مؤهلات؟ إنها مشكلة كبرى لهم، وللبلد الذي ينزلون فيه، ولقائدهم موسى بن عمران (عليه السلام) الذي لابد وأن يلاقي الصعوبة من قومه ومن أهل ذلك البلد الذين يريدون النزول فيه.

ولا يتمكّنون من أن يعيشوا في بريّة.. إذن فما العلاج؟

لقد حل الله المشكلة، فأوحى إلى موسى أن ينحو نحو الأرض المقدسة، أرض الشام، التي قدّست وبوركت بكثرة الأنبياء، وبكثرة الفاكهة والمياه، وطيب الهواء.

وكان ذلك في نفس الوقت حلاً لمشكلتين: مشكلة هؤلاء النازحين، الذين يحدو بهم السير نحو بلاد يعيشون فيها آمنين، يؤدّون شعائرهم بكل حرّية، ويعبدون الله جهاراً، بلا خوف ولا رقابة.. ومشكلة الكفّار الذين كانوا في (الشام) وكانوا إخوان (فرعون) في

العقيدة والعمل، فقد كان العمالقة الساكنون في (الشام) كفّاراً عتاةً يفسدون ويظلمون ويبغون في الأرض بغير الحق.

أما إذا جاء موسى وبنو إسرائيل وأخضعوهم، فإن صبغة البلاد تنقلب من الكفر إلى الإيمان، ومن الطغيان إلى العدل.

أمّا.. لماذا لم يصمّم بنو إسرائيل على الرجوع إلى (مصر) مقرّهم، بعد هلاك عدوّهم؟ فكان ذلك بأمر الله الذي أراد لهم أن يسكنوا الأرض المقدّسة، ولعلّ الغرض من ذلك كان إرادة تطهيرها من الوثنية وعبادة الطاغوت، وقطع يد الظالمين عنها.

ــ 11 ــ

نزل قوم موسى عند نهر الأردن، وكان من المقرر أن يواصلوا السير حتى يصلوا إلى الشام، لكنهم خانوا وتردّدوا، أمّا موسى فلم يتردد، بل خاطبهم قائلاً: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) أن تدخلوها (ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) بعدم إطاعة أوامر الله، فإن ذلك يوجب خسران الدنيا والآخرة.

لكن القوم بقوا على عنادهم، فــ(قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين) هم العمالقة الذين كانوا أقوياء في البنية، أشدّاء، منحرفي العقيدة والعمل (وإنا لن ندخلها) إذ نخاف أن تكون نساؤنا وأطفالنا غنيمة باردةً لهم، ونقع في أسرهم كما كنا في أسر فرعون من ذي قبل (حتى يخرجوا) أي العمالقة (منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون).

وقد همّ جماعة من بني إسرائيل بالانصراف إلى مصر، ثم إن موسى بعث من كل سبط من الأسباط الاثني عشر، رجلاً، ليروا وضع الأرض المقدسة، لعلّهم يتشجّعون على دخولها، لكن القوم رجعوا بعكس ذلك، وبعضهم عادوا خائفين وجلين مما شاهدوا من أمر العمالقة.

أمر موسى (عليه السلام) الرجال الاثني عشر أن يكتموا ما شاهدوا، لئلا يجبن أصحابه فكتم بعضهم، وأفشى الآخرون، مما زاد الأمر إعضالاً، واستبدّ القوم في عدم الدخول.

فــ(قال رجلان) هما (يوشع) و(كالب) (من الذين يخافون) الله ويتبعون أوامره، ممن قد (أنعم الله عليهما) بالإيمان والتقوى: يا قوم لا تخافوا و(ادخلوا عليهم) أي على العمالقة (الباب) باب المدينة، (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) فإن من الطبيعي أن يكون المهاجم

رابحاً للمعركة ــ (فما غزي قومٌ في عقر دارهم إلا ذلّوا)[3] ــ (وعلى الله فتوكّلوا) يا قوم (إن كنتم مؤمنين).

سخر القوم من كلام (يوشع) و(كالب) وأرادوا أن يرجموهما بالحجارة، وتوجّهوا إلى موسى قائلين: (يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) فليس لنا طاقة بهم، وقد أُرهقنا في مصر، فلا نوقع أنفسنا في مشكلة ثانية لا ندري ماذا تكون عاقبتها، فإذا أردت أن لا نرجع إلى مصر (فاذهب) يا موسى (أنت وربك فقاتلا) العمالقة حتى تتغلّبا عليهم (إنا هاهنا قاعدون) فإن طهّرت البلاد منهم دخلناها، وإلا فلسنا نحن بداخلين.

هنا غضب موسى (عليه السلام)، وتحيّر ماذا يصنع بهم؟ بعد ما أنقذهم من يد عدوّهم (فرعون) وأراهم تلك الآيات البينات. ثم.. توجّه إلى الله سبحانه في ضراعةٍ قال: (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي) هارون (فافرق) وباعد يا رب (بيننا وبين القوم الفاسقين) وإذ لم يسمع القوم كلام الله المنزل على نبيه، وخالفوا موسى بن عمران، استحقوا العقاب والعذاب.

فقد أوحى الله تعالى إلى موسى (قال فإنّها) أي الأرض المقدسة (محرّمة عليهم) تحريماً تكوينيّاً، فإني لا أقسم دخولها لهم بعد ما عصوا وعتوا (أربعين سنة).

وماذا يكون مصير القوم إذن؟ إنهم في هذه المدة (يتيهون في الأرض) حائرين لا يرجعون إلى مصر، ولا يدخلون الشام، بل هم في هذه المدة تائهون في الصحراء (فلا تأس) ولا تغتم يا موسى (على القوم الفاسقين) مما ينالهم من الصعوبات في هذه المدة.

ــ 12 ــ

ربما يستغرب كيف يمكن أن يتيه قوم يبلغ عددهم ثلاثة أرباع المليون ــ تقريباً ــ في صحراء، يمكن أن يهتدي إلى الطريق فيها أنفار قليلون في أيام معدودات؟

لكن هذا الاستغراب يتلاشى لو علم الإنسان قدرة الله تعالى على كل شيء، وإنه سبحانه هو الذي أراد هذا التيه لبني إسرائيل عقوبة على ما اقترفوه من المعصية بعدم إطاعة موسى في دخول الأرض المقدسة.

---

(3) نهج البلاغة: ج1، ص68.

هذا.. مع غضّ النظر عن أن الشخص غير المسلم يمكن أن يرى بقاءهم في الصحراء في هذه المدّة طبيعياً، إنهم لم يكونوا يقدرون على الرجوع إلى مصر، بعد أن انقلعت عنها قلوبهم، كما انتقلت عنها أقدامهم، لم يكونوا قادرين ــ حسب زعمهم ــ على دخول الأرض المقدسة، لأن فيها قوماً جبّارين، ولا قبل لبني إسرائيل بهم.

إذن فما من حيلة إلا البقاء في الصحراء، حتى ينكشف لهم الطريق الصحيح؟ والجمع الكثير يتمكّنون من إيجاد مرافق الحياة لأنفسهم حتى في المفازة ــ هكذا يعلّل الأمور من لا يريد الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة ــ أمّا نحن ففي غنى عن مثل هذه الكلمات والتوجيهات.

فما يتراءى من بعض الذين انهزموا أمام التيارات الإلحادية ــ التي لا تؤمن بالإعجاز ــ من تأويل كلّ معجزة بأمور طبيعية، شطط في القول، وتناقض في التفكير، في فرق بين الإعجاز بالوحي على الرسول، وبين الإعجاز بالتيه في الأرض، أو ضرب العصا بالبحر الموجب لانفلاقه؟

وإن قبلنا الرسالة يلزم أن نقبل كل توابعها، وإن لم نقبل التوابع، فما هو الفارق بين الأمرين؟

فلندع بني إسرائيل في التيه، لنرى إلى ماذا انتهى أمرهم وأمر موسى (عليه السلام) وكيف عاشوا في التيه هذه المدة الطويلة؟

بساط سليمان (عليه السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

كان داود من أنبياء الله تعالى، وكان بيده السلطة الزمنية، كما أن بيده السلطة الدينية، وكان يقضي بين الناس بالحق، فقد قال الله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق).

مرّت أزمنةٌ على ذلك، لكن داود كان تعلّم أنه لابد وأن يموت فعليه أن يخلّف أحداً مكانه ليقوم مقامه في هداية الضالّ، وتعليم الجاهل، وإرشاد الغافل، وإقامة الأحكام، ليبقى الدين قائماً.

وكيف يمكن أن يذهب عن أمته بدون أن يُعين خليفةً له من بعده.

وذات مرّة أوحى الله تعالى إليه بان يخلّف على الأمّة ابنه (سليمان)، وكان سليمان (عليه السلام) في ذلك الوقت غلاماً حدث السنّ، لكنه كان أهلاً للخلافة لمكانته الدينية وفضله وتقواه، وذكائه، وفطنته، ومعرفته الحق من الباطل، والحلال من الحرام.

وقد اختار الله (سليمان) خليفة لداود، حيث علم سبحانه أن (سليمان) أهلاً لذلك، ولم يكن لداود أن يختار لنفسه خليفةً بدون إذن الله تعالى، فإن الخلافة للأنبياء، كالنبوّة لا تكون إلا بتعيين الله تعالى.

وطبيعي أن يفرح (داود) لهذا الوحي الإلهي، الموجب لامتداد النبوة والقدرة في بيته.. لكنه من الطبيعي أيضا أن يخاف إنكار أصحابه وشيوخ بني إسرائيل لخلافة ولده، وهل يرضى الشيوخ أن ينضووا تحت لواء غلام؟ وإن كان له من الفضل والنبل الشي الكثير، إضافة إلى أن الحسد دارٌ قلّما يسلم منه إنسان عادي.

ــ 2 ــ

وأخيراً.. أخبر (داود) بني إسرائيل بأمر الله تعالى، وأنه سبحانه جعل خليفته فيهم (سليمان).

وهنا قامت القيامة على بني إسرائيل، فضجّوا من ذلك، واستنكروا خلافة (سليمان) قائلين: وهل يستخلف (داود) علينا حدثاً، وفينا من هو أكبر منه؟ ولمّا أكثروا من اللغط والغلط والإنكار والشجب لخلافة سليمان (عليه السلام) أرسل داود (عليه السلام) إلى أسباط بني إسرائيل وشيوخهم ليكلّمهم ويناقش الموضوع وجهاً لوجه.

وقد أراد (داود) أن يدعم أمر خلافة سليمان بحجة وبرهان، لا يتمكّن أحد من إنكار تلك الحجة، ولا من مقابلة ذلك البرهان، ولذا جعل الحجة (معجزة) كما هو شأن الأنبياء، حتى يأتوا بالمعجزات إن رأوا عناد المخالف.

ــ 3 ــ

قال داود لشيوخ بني إسرائيل: قد بلغتني مقالتكم، وكراهتكم لتنصيب ولدي خليفةً عليكم من بعدي.. إن هذا من أمر الله، لا من أمري، فالله هو الذي يعيّن خلفاء الأنبياء، وإن أنكرتم قولي، فإليكم هذه الحجة:

أدّوني ــ يا معاشر شيوخ بني إسرائيل ــ عصيّكم، فأي عصا أثمرت وهي عودٌ يابسة، فصاحب تلك العصا هو الخليفة من بعدي، ووليّ أمر الناس.

يا لها من حجة! وهل تخضر العودة اليابسة؟ أم هل تأتي بثمرٍ؟ أليس ذلك كافياً لصدق (داود) (عليه السلام)؟ فإن إثمار العصي لا يكون إلا بأمر الله تعالى، فمن أثمرت عصاه فهو الخليفة.

اتفق الجميع على ذلك، وجاء شيوخ بني إسرائيل بعصيّهم، وقالوا لداود، رضينا بهذه الحجة.. فقال لهم (داود): ليكتب كل واحد منكم اسمه على عصاه، فكتبوا، وجاء (سليمان) أيضاً بعصاه وكتب عليها اسمه.

ثم.. أمر (داود) أن يجعلوا تلك العصي في غرفة، فجعلوها كما أمر وأغلقوا الباب، وتبنّى حراسة الغرفة رؤوس أسباط بني إسرائيل وكبراؤهم ــ حذراً من التزوير ــ ، وبقيت العصي في الغرفة ليلة كاملة فلمّا أصبحوا صلى (داود) بهم صلاة الصبح ــ على حسب عادته كل يوم ــ ثم أقبل في حشد كبير ففتح باب الغرفة، وأخرج العصي، وإذا بإحداها مثمرة.

وهنا اشرأبت الأعناق، وامتدّت الأعين، ليروا لمن هذه العصا؟ وكل يرجوا أن تكون عصاه.. وإذا بهم يقرأون الاسم المكتوب على العصا، فيلمع اسم سليمان (عليه السلام) فهذه عصا سليمان التي أورقت وأثمرت.

سلّم شيوخ بني إسرائيل الأمر لنبي الله (سليمان) وعلموا أنه من عند الله تعالى. فلا يحق لهم بعد هذه الحجة المناقشة، وأصبح معروفاً أن (سليمان) هو الخليفة الشرعي لداود (عليه السلام).

لكن داود (عليه السلام) أراد أن يظهر للناس فضل ولده (سليمان) وأن الله سبحانه لم يمنحه هذه العطية اعتباطاً، ولذا أخذ (داود) يسأل (سليمان) أسئلة تدل أجوبتها على مقدار ذكاء ولده، وعقله وحصافته.

وكان الاختبار والتداول في محضر بني إسرائيل ورؤوس الأسباط.

فقال داود لسليمان: يا بني ما أبرد الأشياء؟

قال (سليمان): عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض.

قال (داود): يا بني ما أحلى الأشياء؟

قال (سليمان): المحبة، وهي روح الله في عباده.

فافترّ (داود) ضاحكاً، ثم قال مؤكداً: يا بني إسرائيل هذا ولدي (سليمان) خليفتي فيكم.

إن أسئلة (داود) كانت ذات وجهين، لكن ذكاء (سليمان) وفطنته أرشداه إلى وجه السؤال الحقيقي ولذا أجاب على طبق السؤال: إن برودة العفو على قلب الإنسان، أحسن من برودة الثلج، وحلاوة المحبة في روح المرء أكثر من حلاوة السكر.

ولعل في سؤالي (داود) إلماعاً إلى وجوب تفشي (العفو) و(المحبة) بين الناس لتستقيم أمورهم، وتقوى الصلات والروابط بينهم.

ــ 5 ــ

تزوّج (سليمان) بفتاة شريفة، وعاش في كنف والد زوجته مدة من الزمن.. وفي ذات يوم قالت الزوجة لسليمان: بأبي أنت وأمي ما أكمل خصالك، وأطيب ريحك، ولا أعلم خصلةً فيك أكرهها إلا أنّك في مؤنة أبي.

وكان لسليمان وجهة نظر في بقائه تحت رعاية أبي زوجته، كما أن الزوجة ثقلت عليها نفقة أبيها.

ثم قالت الزوجة لسليمان: فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله رجوت أن لا يخيبك.

وكان قصدها أن يحصل زوجها على رزق الله مباشرة، دون إعالة (داود) أو إعالة أبيها.

مضى سليمان، ذات يوم إلى ساحل البحر، فرأى صيّاداً يصيد السمك، فقال له: هل تحب أن أساعدك في مهمتك بأجرة تدفعها لي؟

رحّب الصيّاد بسليمان ــ وهو لا يعرفه ــ فأخذ سليمان يعاونه حتى إذا فرغ الصياد، قدّم لسليمان (عليه السلام) ــ سمكتين ــ أجرة لعمله.

فشكر سليمان الله تعالى، وأخذ السمكتين، ولما شقّ بطن إحداهما، وجد في جوفها خاتماً! ففرح بالخاتم، فرحاً كثيراً، لقد ساقه الله سبحانه إليه، ليجعل في ذلك الخاتم سر عظمة ملك سليمان، وتسخير كل شيء له.

ــ 6 ــ

إن الله سبحانه تفضّل على (داود) و(سليمان) فأعطاهما النبوة، والخلافة في الأرض، والسيطرة والسلطة (ولقد آتينا داود وسليمان علماً) فهما عرفا هذا الفضل لله تعالى وشكراه في مقابل هذه النعمة العظيمة فــ(قالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين). وقد أعلم (سليمان) الناس بما منحه الله تعالى، زيادةً في الشكر (فإن الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ أحب أن يرى أثرها فيه)(4).

(وورث سليمان داود) ورثه في إرثه الشخصي، كما ورثه في علمه وحكمته وسلطته (وقال يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير) فكان سليمان (عليه السلام) يعرف كلام الطيور، فإذا تكلّم ببغاء أو عصفور أو حمام أو هدهد أو غيرها من سائر الطيور، لآخر من بني جنسه، سمع سليمان كلامها وعرف معنى الكلام.

إنه (عليه السلام) لم يكن يعرف منطق الطير فقط، بل كان يعرف منطق سائر الحيوانات.. كما أن الله سبحانه سخّر لسليمان الريح، فكانت تحمله، كما تحمل الطائرة أحدنا.. وكان سليمان قد سخّر له (الجن) فكان الجن يعملون بأمره، إلى غيرها من النعم الكثيرة التي منحها الله سبحانه لسليمان تفضّلاً، ولذا قال سليمان لقومه ــ حيث كان يذكر فضل الله عليه ــ : (وأُوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين).

ــ 7 ــ

وقد كان لسليمان جلالة عظيمة، فقد دعا الله سبحانه قائلاً: (رب هب لي ملكاً لا ينبغي

---

(4) وسائل الشيعة: ج3، ص341.

لأحد من بعدي) فاستجاب الله دعاءه وأعطاه الملك العظيم وكان من ذلك الملك العظيم (بساط سليمان).

وكان سليمان مع ذلك في منتهى التواضع والزهد، فكان يلبس لباس الشعر تزهداً في زخارف الدنيا.

وكان إذا أقبل الليل يشد يده في عنقه ــ تواضعاً لله تعالى ــ ويقف في محراب عبادته مصلّياً باكياً خاشعاً، حتى الصباح.

وكان إذا دخل مجلساً فيه أغنياء وفقراء تصفّح الوجوه، فيجوز عن الأشراف والأغنياء، حتى يصل إلى الفقراء فيقعد معهم، ويقول: (مسكين مع المساكين). وكان يعمل بيده سفائف الخوص، ثم يبيعها ويأكل من ثمنها. وإنما طلب الملك ليقوى به على الكفار وينشر في الأرض التوحيد، ويأخذ للمظلوم من الظالم.

أما بساط سليمان فهو شيء عجيب، لا تبلغه أكبر الطائرات والصواريخ المكتشفة في زماننا هذا. فكان يجلس أحياناً على بساطه، وعن يمينه ثلاثمائة ألف كرسي عليها الإنس، وعن يساره ثلاثمائة ألف كرسي عليها الجن، وكانت تأتي الطيور فتصفّ بأجنحتها على ذلك البساط الممتد حتى لا يؤذيها حر الشمس، ثم يرتفع هذا البساط المهيب في أجواء السماء.

ــ 8 ــ

ولسليمان (عليه السلام) قصص شيقة مع الحيوانات:

فذات مرة تحيّرت (القبرة) أين تبيض، فسألها ذكرها: أين تريدين أن تبيضي؟ فقالت الأنثى: لا أدري.. أنحيه عن الطريق ــ وكان ذلك لخوفها أن يصيب المارّة البيض في الطريق فيفسدوه ــ .

فقال الذكر: إني أخاف أن يمر بك مارٌ في الطريق.. وبعد لأي وجد الذكر والأنثى مكاناً مناسباً للبيض فباضت الأنثى وحضنت البيض حتى قرب الفقس.

فبينما هما كذلك طلع سليمان (عليه السلام) في جنوده والطير يظله فاضطربت الأنثى خوفاً من أن ينزل سليمان بجنوده فيدوسوا بيضها، فقالت للذكر: هذا سليمان قد طلع علينا بجنوده، ولا آمن أن يحطّمنا ويحطّم بيضنا؟

أجاب الذكر: إن سليمان لرجل رحيم لا يفعل ذلك.

ثم قرّر أن يقدّم كل واحد من الذكر والأنثى هديّة إلى (سليمان) استعطافاً له، وجلباً لانتباهه إلى مكانهما. فأخذ الذكر تمرةً في منقاره، وأخذت الأنثى جرادة في رجلها، وجاءا بالهديّة إلى سليمان.. فلمّا رآهما سليمان ــ وهو على عرشه ــ بسط لهما يديه فوقع الذكر في كفّه اليمنى، ووقعت الأنثى في كفة اليسرى فقدّما له الهدية، وأمر جنده أن يتجنّبوا محل بيضهما، ودعا لهما بالبركة ومسح سليمان تعطفاً على رأسيهما. ومن أثر يد سليمان أحدث الله (القنزعة) مثل التاج على رأس القبّرة.

جاءت سليمان يوم العرض قبّرةٌ *** تهدي إليه جراداً كان في فيها

فاستقبلته وقالت وهي ضاحـــــكةٌ: ***إن الهدايا على مقـــــدار مهديها

ــ 9 ــ

وذات مرة حدثت قصة جميلة بين سليمان ونملة:

فقد أتى جمع (لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) يجلس أوّلهم لآخرهم، حتى يجتمع الكل فيركبوا البساط، ويسيروا في الهواء أينما شاءوا.

وكان من شأن (البساط) أنه يسير في الفضاء صباحاً مقدار ثلاثين يوماً إذا أراد أن يسير فيها السائر العادي، وكذلك كان البساط يقطع مثل هذه المسافة، في المساء.

فسار البساط، وعليه سليمان وجنوده، والطير صافّات فوقهم (حتى إذا أتوا على وادِ النمل) وكان محلاً كثير النمل، من مدينة (الطائف) أو مدينة (الشام).

هناك نظرت نملة إلى بساط سليمان، فخافت إن نزل، أن يحطم النمل، سليمان وجنوده، ولذا قالت محذّرة سائر النمل: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) في أجواف الأرض (لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فإن الإنسان لا يشعر بوجود النملة تحت رجله.

وشاء الله تعالى أن يسمع سليمان كلام النملة (فتبسم) سليمان (ضاحكاً من قولها) كيف تتحفظ على بني نوعها، وتجنبهم الأخطار. ثم توجه سليمان إلى ربه في ضراعة، قائلاً: (رب أوزعني) أي وفقني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليه وعلى والديَّ) ووفقني (أن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني) يا رب (برحمتك في عبادك الصالحين).

ــ 10 ــ

ومرّة أخرى سمع سليمان (عليه السلام) حواراً بين (عصفورٍ) و(عصفورةٍ) فقد كانت الأنثى تمنع نفسها عن معاشرة الذكر، فقال الذكر ــ مبيّنا قوّته لأنثاه ــ : لو شئت أخذت قبّة سليمان فألقيتها في البحر.

فعجب سليمان من كلام العصفور، وتبسم ضاحكاً.

ثم إن سليمان طلب العصفورين، وقال للعصفور: هل تطيق أن تفعل ما قلته للعصفورة، من إلقاء قبتي في البحر؟

قال العصفور: لا يا نبي الله، ولكن المرء قد يزين نفسه عند زوجته، والمحب لا يلام على ما يقول.

ثم توجه سليمان إلى العصفورة، قائلاً:

لم تفرّين من زوجك، وهو يحبك؟

قالت العصفورة: يا نبي الله، إن زوجي لا يحبني، وإنما هو يدّعي ذلك، والدليل على أنه لا يحبني، أنه يحب غيري.

هنا جاشت في نفس سليمان الخواطر الإلهية، فكيف يمكن أن يدّعي محبة الله، من يحب غير الله،؟ إن عصفورة صغيرة تعرف أن محبتين لا يجتمعان في قلب واحد، فكيف يقول الإنسان إني أحب الله، وهو يحب الدنيا؟ وهل يمكن أن تجتمع في قلب الإنسان محبتان: محبة الله ومحبة الدنيا؟

ولذا تأثر سليمان بكلام العصفورة، وبكى بكاءً شديداً، وأخذ يدعو الله سبحانه أن يملأ قلبه من محبته، ويفرغ قلبه من محبة ما سواه.

ــ 11 ــ

وفي يوم من الأيام كان سليمان (عليه السلام) جالساً، مع أصحابه، فصاحت الطيور، ففسر كلامها لأصحابه، حتى يعلموا أن كل طير يقول قولاً، وليست صيحات الطيور أصواتاً فارغة.

صاح (ورشان) فقال سليمان: يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت (فاختة) فقال سليمان: تقول: ليت الخلق لم يخلقوا.

وصاح (طاووس) فقال سليمان: يقول: كما تدين تدان.

وصاح (هدهد) فقال سليمان: يقول: من لا يَرحم لا يُرحم.

وصاح (صرد) فقال سليمان: يقول: استغفروا الله يا مذنبين.

وصاح (طوطن) فقال سليمان: يقول: كل حي ميّت، وكلّ جديد بال.

وصاح (خطّاف) فقال سليمان: يقول: قدّموا ضراً تجدوه.

وهدلت (حمامةٌ) فقال سليمان: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سماواته وأرضه.

وصاح (قمري) فقال سليمان: يقول: سبحان ربي الأعلى.

ثم.. إن سليمان (عليه السلام)، نشر لأصحابه كلام بعض الطيور الأخرى التي لم تكن حاضرة فقال (عليه السلام):

الغراب، يدعو على العشّارين.

والحدا، يقول: كل شيء هالك إلا وجهه.

والقطا، يقول: من سكت سلم.

والطائر الأخضر، يقول: ويلٌ لمن الدنيا همّه.

والباز، يقول: سبحان ربي وبحمده.

والدراج، يقول: الرحمان على العرش استوى.

وهذا الكلام الشيّق من سليمان فتح على أصحابه أبواب المعرفة، كما كان هذا الكلام فاتحة خير للبشر، حيث عرفوا أن الحيوانات تتكلم، وأخذوا يبحثون للتوصل إلى معرفة كلام الحيوانات.(5)

ــ 12 ــ

وذات مرة كان سليمان (عليه السلام) جالساً على شاطئ بحر، فبصر بنملةٍ تحمل حبّة قمحٍ تذهب بها نحو البحر، فجعل سليمان ينظر إليها، حتى بلغت الماء، فإذا بضفدعة قد أخرجت رأسها من الماء وفتحت فاها، فدخلت النملة في فمها، وغاصت الضفدعة في البحر.

---

(5) توصل العلم الحديث إلى بعض ما أراد، راجع كتب (نوفل).

فدهش سليمان لهذا الحادث وأخذ يفكر متعجباً!

فلم يمر زمان حتى رأى سليمان الضفدعة تخرج من الماء، ثم فتحت فاها، وخرجت النملة من فمها، وليست معها حبّة الحنطة.

هنالك، دعا سليمان النملة، ليستفسرها عن الخبر؟

أجابت النملة: يا رسول الله، إن في قعر هذا البحر الذي تراه صخرة مجوّفة، وفي جوفها دودة عمياء قد خلقها الله هنالك، وهي لا تقدر على رزقها، وقد وكلني الله برزقها، فأنا أحمل رزقها، وهذه الضفدعة مأمورة أن تحملني إليها، فإذا وصلنا إلى الدودة، وضعت الضفدعة فمها على ثقب الصخرة، فأدخلها ــ وأنا آمنة من البلل ــ فألقم الدودة رزقها، ثم أخرج إلى فم الضفدعة لتردني إلى الجرف.

قال سليمان ــ وهو متعجب من فضل الله سبحانه في حكمته ــ : وهل سمعت أيتها النملة، من الدودة تسبيحة؟

قالت النملة: نعم.

إنها تقول: (يا من لا تنساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجة، برزقك، لا تنس عبادك المؤمنين برحتمك).

وقد كان في هذه القصة الطريفة تصديق لقول الله تعالى في القرآن الحكيم: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها).

وكذلك في هذه القصة تصديق لقول الله سبحانه: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

كما أن فيها عبرة للإنسان وذكرى له: إنه لا ينبغي للحريص أن يعصي الله تعالى لتحصيل رزقه، كما يكون بعض الناس هكذا يرابون، ويغشون، ويسرقون، ويحتكرون، ويأكلون أموال الناس ظلماً، ويمنعون حقوق الله عدواناً.. كل ذلك ظنّاً منهم أن تلك الأعمال هي التي توفر لهم المعيشة، وهي التي تهيئ لهم الرزق.

ولذا قال القرآن الحكيم، تنديداً بهم: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين). إن من لا ينسى دودة عمياء في جوف صخرة صمّاء، تحت مياه ظلماء، كيف ينسى الإنسان؟ وهل يمكن أن يحتاج الإنسان، لرزقه، إلى عمل الحرام؟ كلا! فمن خلق الإنسان يعطي ويرزق.

ــ 13 ــ

لقد كان (لسليمان الريح عاصفة) فكانت تعصف لتحمل بساط سليمان إلى حيث يشاء، فكانت الريح (تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أي جعلنا فيها البركة بإرسال الأنبياء، وبكثرة الثمار والأشجار والأنهار، وعذوبة الهواء ــ وهي أرض الشام، كما في بعض التفاسير ــ .

(وكنّا بكل شيء عالمين) ومن علمنا وحكمتنا أعطينا سليمان هذا البساط ليعرف الناس بعض قدرة الله تعالى، وليروا آثار ملكه.

(و) سخّرنا له (من الشياطين) والجِنة[6] (من يغوصون له) في أعماق البحار ليخرجوا الدّر واللؤلؤ والمرجان وسائر الأحجار الكريمة الموجودة في أعماق البحار.

والشيطان والجنّ هنا بمعنى واحد: فإنه جسمٌ لطيف لا تراه العين المجرّدة، يسمّى شيطاناً لشيطنته وسرعة تقلّبه في الأمور، كما يسمّى (جنّاً) لستره عن الأبصار[7].

(ويعملون عملاً دون ذلك) أي اسهل من الغوص في أعماق البحار البعيدة (وكنّا لهم) أي للشياطين (حافظين) لئلا يهربوا من سليمان أو يفسدوا عليه.. (و) قد كانوا يعملون له ما يشاء من (محاريب) للعبادة (وتماثيل) أي بمثال الأشجار وما أشبه (وجفان) جمع جفنة، وهي الآنية الكبيرة (كالجواب) أي كانت كل جفنة كالحوض الكبير، فإن (جواب) جمع جابية، وهي الحوض الكبير (وقدور راسيات) ثابتات في الأرض، القدور لأجل طبخ الطعام للجيش والناس، والجفان لأجل الإطعام (وأسلنا له عين القطر) أي أذبنا لسليمان عين النحاس، فكان كالماء المذاب، يصنعون به ما يشاءون.

وربما كان الجن يهربون من سليمان أو يريدون الإفساد، فــ(من يزغ) وينحرف (منهم) أي من أولئك الجن المسخرين لسليمان (عليه السلام) (عن أمرنا) فقد كان سبحانه أمر الجن بإطاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) فقد ورد أن الله سبحانه وكّل بالجن العاملين لسليمان، ملكاً بيده سوطٌ من نار، فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان، ضربه ضربةٌ تحرقه.

---

(6) الجِنة: جمع جني.

(7) قد عرف العلم الحديث: (التحضير، والتنويم) لهذا الموجود العجيب.

وبعد ما أنعم الله تعالى، لسليمان بهذه النعم العظيمة، وكذلك أنعم على أقربائه، بنعمة سليمان، ونعمة داود، قال لهم: (اعملوا آل داود شكراً).

قال الإمام الصادق (عليه السلام): (كانوا ثمانين رجلاً، وسبعين امرأة، ما اغب المحراب رجلٌ واحدٌ منهم يصلّي فيه)(8) فلم يكونوا يتركون المحراب والصلاة فيه، بل كانوا دائمي العبادة والطاعة.

وعمل الشكر؛ أعمّ من الشكر باللّسان، وإظهار الطاعة بالجوارح، والعقيدة الراسخة في القلب، بالنسبة إلى الله تعالى ولطفه، جميل صنعه.

ــ 14 ــ

قد عرفت في هذه القصّة الشيّقة كيف كان سليمان (عليه السلام) نبيّا عظيماً، وملكاً، وزاهداً.

ولعل من أسرار جمع الله لسليمان بين النبوة والملك، تعليم الملوك، وهداية المهتدين: أن لا منافاة بين الدنيا والدين، فرجل الدين يتمكّن أن يدير البلاد، ورجل الملك يتمكن أن يرشد الناس.

وقد كان يوسف الصديق (عليه السلام)، أيضاً نبّياً وملكاً، وكان نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّاً ويدير أمن البلاد ويصلح شأن الدنيا.

أمّا معجزات سليمان، وما أوتي من القوة والقدرة، وتسخير الجن وما أشبه ذلك.. فكلّها هيّنة بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، إنه سبحانه الخالق القادر الذي بيده كل مفتاح، وهو على كل شيء قدير، وقد شاءت حكمته أن يجعل مقاليد بعض أجزاء الكون في يد نبيه سليمان (عليه السلام) ليكون آية لنبوّته، كما كانت ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، ونار إبراهيم عليهم السلام، آيات دالّة على صدق نبوة هؤلاء الأنبياء.

---

(8) بحار الأنوار: ج14، ص71.

سليمان (عليه السلام) وبلقيس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

كان سليمان (عليه السلام) إذا جلس على كرسيه، جاءت الجن والملائكة، والإنس فاصطفوا حواليه، على كراسي معدّة لهم.

وجاءت جميع الطير التي سخّرها الله لسليمان، فاصطفت على رؤوس الجميع، لتظللهم من الشمس، وكان لكل طائر مكان مقرّر له، فإذا أشرقت أشعة الشمس على موضع من البساط نظر الحاضرون إلى الكوة، فعرفوا أي الطيور تخلّف عن وظيفته.

وكان الهدهد ــ وهو طائر جميل، من خواصّه أنه ينظر إلى الماء في باطن الأرض ــ من جملة الطيور لتضلّل الجمع في الصافات على مجلس سليمان.

(و) ذات مرّة نظر سليمان، وإذا بالشمس تخرق صفّ الطير، وتقع أشعة منها على حجر سليمان فــ(تفقّد الطير) طلبها وتعرّف إليها، ليرى أي الطير غاب عن صفه، حتى أرسلت الشمس بريدها إلى المجلس.. وإذا بسليمان يرى أن الهدهد هو الغائب (فقال مالي لا أرى الهدهد)؟ أي ما للهدهد لا أراه؟ هل حدث له حدث، (أم كان من الغائبين)؟

وكيف يغيب الهدهد، بلا إذن؟ وهل يجوز لأحد الجند ــ طيراً كان أو غيره ــ أن يترك وظيفته ليذهب حيث يشاء؟

غضب سليمان من هذا الحادث، وحلف قائلاً (لأعذِّبنَّه عذاباً شديداً) بنتف ريشه (أو لأذبحنّه) حتى يكون ذلك ردعاً لغيره من الجنود، وجزاءً على مخالفته الأمر، وهذا التعذيب أو الذبح يكون إذا لم يأتني الهدهد بعذر واضح (أو ليأتينّني بسلطانٍ) أي عذر لغيبته (مبينٍ) واضح لا يقبل الشك والإنكار.

لقد غضب سليمان على الهدهد لتركه وظيفته بدون استئذان ونوى عقوبته (فمكث) سليمان مكوثاً (غير بعيد) وما هي إلا فترة قصيرة، حتى رأى الهدهد راجعاً.

سأل سليمان الهدهد: أين كنت؟ ولماذا غبت؟ وما هي الحجة والعذر في تركك الوظيفة بدون استئذان؟

(فقال) الهدهد يا نبي الله لا تعجّل علي بالعقوبة، فقد ذهبت استطلع لأجلك وإذا بي (أحطت) واطّلعت (بما لم تحط) ولم تطلّع (به) أنت (وجئتك من سبأ) وهي أرض في اليمن (بنبأ) أي خبر (يقين) فليس الكلام كذباً وإنما كلامٌ صادق.

وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (أن سبأ كان اسم رجل ولد له عشر أولاد، وصاروا آباء قبائل، نحا نحو الشام منهم أربعة، وهم: لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة. ونحا نحو اليمن منهم ستةٌ، وهم: كندة، والأشعرون، والأزد، وحمير، ومذحج، وإنمار: ومن انمار صارت: خثعم، وبجيلة)(9).

فسمّى تلك البلدة، باسم أبي هؤلاء الأولاد: رؤوس القبائل العربية.

ــ 3 ــ

قال سليمان للهدهد: وما هو النبأ الذي يكون عذراً لك في غيبتك؟

قال الهدهد: (إني وجدت) هناك مملكة عظيمة، وأناساً كثيرين، ووجدت (امرأة تملكهم) فملكهم امرأة، وهذا أمر غريب، فهل تصلح المرأة لإدارة الأمور؟

أليست المرأة خلقت عاطفيّة لإدارة البيت؟ وهل يمكن الجمع بين العاطفة التي تجيش بسرعة، وتخبو بسرعة، وبين الإدارة التي تحتاج إلى صلابة نفس وقوّة روح، وعدم تمايل عن الحق مهما تغلّبت العاطفة؟

(وأوتيت) تلك المرأة الملكة (من كل شيء) فقد أعطاها الله سبحانه أموالاً، وجيوشاً وقصوراً، وبساتين، وسائر ما هو لازم للبلاد.

وكان من قصّة الملكة، أن أباها كان ملكاً، ثم مات فاجتمع الوزراء والقواد على تتويجها، لتكون ملكاً رمزياً، وكان الذين يديرون البلاد هم كبار رجال الدولة.

وقد كان اسم هذه الملكة (بلقيس).

---

(9) بحار الأنوار: ج66، ص335.

ثم قال الهدهد لسليمان (عليه السلام): (ولها عرش عظيم) وقد ورد في وصف عرشها أن مقدّمه كان من ذهب مرصّع بالياقوت الأحمر، والزمرّد الأخضر، ومؤخره من فضة، مكلّلة بألوان الجواهر وعليه سبعة أبيات، لكل بيت باب مغلق.. هناك تجلس الملكة لتحكم البلاد.

هكذا كانت الملكة (أوتيت من كلّ شيء ولها عرشٌ عظيم) أمّا كيف كان حال الشعب فذلك مما لم ينقل إلينا، لكن الطابع العام في الحكومات الكافرة غالباً، الاعتداء والظلم والاستبداد إما من الملك، أو من طبقة الأشراف والنبلاء المحيطين به.

ــ 4 ــ

لقد حكى الهدهد لسليمان ما رآه عن الملكة وعرشها.

لكن بقي شيء، وهو ما هو دين الملكة ودين قومها؟ لقد قال الهدهد (وجدتها وقومها يعبدون الشمس من دون الله) فهم عوض أن يعبدوا الخالق الذي أعطاهم كل شيء، يعبدون الشمس (وزيّن لهم الشيطان أعمالهم) هل أراد الهدهد بهذا تأكيد الكلام السابق بأن أراد بأعمالهم عبادتهم للشمس، أو أراد أنهم كانوا مغمورين في الفسق والفجور؟ ــ كل ذلك محتمل ــ ولعل الأقرب إرادة المعنى الثاني، فإنّ الغالب في الكفار تفشّي المنكرات والآثام والإجرام فيهم.

وكيفما كان، فقد أتم الهدهد كلامه قائلاً: (فصدّهم) الشيطان (عن السبيل) الواضح، الذي هو طريق الله سبحانه (فهم لا يهتدون) إلى الحق في العقيدة والعمل.

(ألاّ يسجدوا) الملكة وقومها (لله الذي يخرج الخبءَ في السماوات والأرض) إن الله سبحانه هو الذي أخرج النعم المخفية الموجودة في السماوات والأرض، فهو مخرج الشمس والقمر والنجوم، والسحاب والمطر، وما إليها مما يكون مخفياً في السماوات، يخرجها لينفع البشر.. وهو سبحانه الذي أخرج المياه والكنوز والأثمار وغيرها من جوف الأرض لينفع الإنسان.. إن الملكة وقومها لم يكونوا يسجدون لهذا الإله العظيم (و) هو الذي (يعلم ما تخفون وما تعلنون) أيتها الملكة وأيها القوم فهو المعطي وهو العالم.

(الله لا اله إلا هو رب العرش) الملك (العظيم) الذي هو أعظم من عرش بلقيس.. هكذا أخبر الهدهد سليمان (عليه السلام) معتذراً من غيبته.

ــ 5 ــ

لما سمع سليمان (عليه السلام) الخبر المدهش من الهدهد تريّث في الأمر، قائلاً (سننظر أصدقت) في خبرك (أم كنت من الكاذبين)؟ فإن صدقت فأنت معذور في غيبتك وإلا استحققت عقابين: عقاب الغيبة بدون إذن، وعقاب الكذب.

ثم إن سليمان (عليه السلام) كتب كتاباً، وختمه بخاتمه، وأعطاه إلى (الهدهد) ليذهب به إلى الملكة، إنه كتاب دعوة إلى الإسلام والإيمان، فهل تقبل الملكة والقوم الإيمان بالله حتى يكونوا في أمن وسلام، أم يختارون العناد والإصرار حتى تجوز لهم العقوبة؟

دفع سليمان (عليه السلام)، الكتاب إلى الهدهد، قائلاً: (اذهب بكتابي هذا فألقه) يا هدهد (إليهم) إلى الملكة وقومها (ثمّ تولّ) ابتعد (عنهم) لتكون في موضع تسمع كلامهم، ولا يرونك (فانظر) يا هدهد (ماذا يرجعون) أي يرجع بعضهم إلى بعض الكلام حول الكتاب وقد أراد سليمان (عليه السلام) أن يتخذ التدابير اللازمة على ضوء جواب بعضهم لبعض.

مضى الهدهد بالكتاب، حتى وصل إلى سبأ وإذا الملكة مع وزرائها في المجلس، فألقى الكتاب إلى الملكة، وإذا بها تدهش، وتفتح الكتاب فتقرأ محتواه..

وهنا توجّهت إلى وزرائها وأشراف قومها (قالت يا أيها الملأ) الأشراف (إني ألقي إلي كتابٌ كريم) يتبين من محتواه، ومرسله أن الكتاب ذو كرامة ورفعة (إنه) أي الكتاب (من سليمان)، النبي ملك الإنس والجن والملك والحيوان (وإنه) مقرونٌ (باسم الله الرحمن الرحيم) لا باسم الشمس التي نعبدها.. أما محتوى الكتاب فهو (ألاّ تعلوا عليّ) أي لا تتكبّروا علي بعد الانصياع إلى أوامري (وائتوني) لتأتي الملكة والأشراف (مسلمين) هذا ما كان في الكتاب، وهكذا قرأته بلقيس على قومها.

ــ 6 ــ

من الطبيعي أن يعلو الوجوم جميع من في المجلس، إنه موقفٌ رهيب أن يدعو ملك أقوى، ملكاً أضعف إلى الاستسلام والانقياد فما الجواب؟ وما هو الموقف؟ وكيف التفكير؟

ولذا تحيّرت الملكة في الجواب و(قالت) موجهةً الخطاب إلى الأشراف: (يا أيها الملأ أفتوني) أشيروا علي (في أمري) هذا، بماذا ينبغي أن أجيب؟ وما هو الأصلح بحالنا،

الخصام أو الاستسلام (ما كنت قاطعة أمراً) أمضي فيه برأيي وأقرّر التقرير النهائي وحدي (حتى تشهدون) تحضرون أنتم وتعطون آراءكم حول الموضوع.

فانبرى القوم لجواب الملكة (قالوا نحن أولو قوة) أصحاب قوة وقدرة وعَددٍ وعُددٍ (وأولو بأس شديد) شجاعة شديدة، ومراس في الحرب.. هذا ما عندنا (و) لكن (الأمر إليك) أيتها الملكة (فانظري) في الأمر (ماذا تأمرين) فنحن مطيعون لأمرك.

تفكّرت الملكة في الأمر مليّا، فهل ترفع اليد عن دينها وتُسلم، أو ترفع اليد عن ملكها وتحارب حرباً يائسة؟ إنها تعلم بقوة سليمان وقدرته، ولذا (قالت) في جواب القوم ــ حيث ألقوا المسؤولية على عاتقها ــ : (إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها) فإنهم يقتلون أبناءها ويهدمون أبنيتها ــ كما هي الطبيعة في الحروب ــ (وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة) يأتون إلى الحكم بأناس جدد، ويحاسبون السلطة السابقة عما كانت تعمل.

(وكذلك) كما قالت الملكة (يفعلون) الملوك الذين يدخلون البلاد حرباً، وعنوةً.. إذ ليس من الرأي المحادثة مع سليمان..

ــ 7 ــ

ليس من الصالح الحرب مع سليمان، لكن هل الطريق منحصرٌ في الاستسلام.

كلا؟ إن هناك حلاً وسطاً للقضية ــ لو نفعت الحلول ــ وما هي أيتها الملكة؟ إنها المجاملة والمصانعة ليلين قلب (سليمان) وليعطف نحوهم، فيتركهم وشأنهم: (وإني مرسلة إليهم بهدية) ومن شأن الهدايا تليين الخصومات والخصوم (فناظرة بم يرجع المرسلون) الذين أرسلهم مع الهدية، فهل يرجعون ببشارة قبول سليمان الهدية وإغضائه عن المخاصمة، أم يرجعون برد الهدية، حتى نرى في الأمر؟

هكذا قرّرت الملكة، ووافق الوزراء على التقرير، وما أجمله من حلّ ــ إن أفاد ــ؟ فأرسلت الملكة هديّة ثمينة ــ ربّما تبالغ القصص في مزاياها وخصوصيّاتها ــ لكنها على كل حال، كانت ثمينة، تليق بمقام المرسلة، وبمكانة المرسل إليه، ونوعيّة العطف المترقب من ورائها. (فلمّا جاء) المرسل بالهدية القيمة (سليمان) استنكر سليمان الأمر، وذوي عنهم، إنه نبي لا يريد إلا هداية البشر، فكيف يترك أمّة كبيرة تتحكّم فيها الخرافات فتعبد الشمس من دون الله؟

(قال) مستنكراً: (أتمدّونني بمالٍ) أي أتزوّدونني بمال الدنيا؟ إني لا أحتاج إلى المال (فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم) فإني أملك الملكين: الملك الدنيوي والملك الإلهي ــ بفضل الله تعالى ــ .

(بل أنتم) يا أهل الدنيا (بهديّتكم) أي بإهداء بعضكم لبعض الهدايا (تفرحون) أما أنبياء الله وأهل الآخرة، فإن فرحتهم تابعة لمرضاة الله تعالى فإن رضي عنهم فإنهم يفرحون، وإلا فلا فرح له فيما سوى ذلك.

ــ 8 ــ

توجه سليمان إلى رسول الملكة قائلاً: (ارجع إليهم) بالهدية، وأخبرهم أنهم إن لم يؤمنوا وتمادوا في الغي (فلنأتينّهم بجنود) كثيرة (لا قبل لهم بها) ولا طاقة لهم بتلك الجنود، ولا قدرة لهم على دفعها (و) إذا حاربناهم (لنخرجنّهم منها) أي من تلك القرية (سبأ) (أذلّة وهم صاغرون) حقراء لا قدر لهم ولا قيمة.

جاء الرسول إلى (بلقيس) وقومها، وأخبرهم بمقالة سليمان، وعلمت الملكة أنه نبي من عند الله وليس ملكاً فحسب، ولذا لم تجد بدّاً من الاستسلام والإسلام، فتجهزت الملكة مع أشراف قومها للمسير إلى سليمان (عليه السلام)، وكأنها أرادت بذلك إظهار خضوعها، وأنها مُسلّمة إليه مقاليد البلاد، ونفسها، فأخبر جبرئيل (عليه السلام) سليمان بمسيرها.

أراد سليمان (عليه السلام)، أن يري لها عظمته، حتى تكون أقرب إلى الطاعة والانقياد، ولتكون حجّة على نبوّته، ولذا طلب من زعماء أصحابه أن يأتوا بعرشها العظيم إلى حيث مقرّ سليمان، فقال: (يا أيها الملأ) الأشراف من أصحابي (أيكم يأتيني بعرشها) أي سرير ملكها الموجود في (سبأ) (قبل أن يأتوني) هي وأشراف قومها (مسلمين) منقادين لله مطيعين لي؟

(قال عفريت) ماردٌ قويٌ (من الجن) الذين كانوا مسخرين لسليمان: (أنا آتيك) يا نبي الله (به) أي بالعرش (قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك، وهذا كنايةٌ عن الإتيان به في نصف يوم تقريباً (وإني عليه لقويٌ) قادر على حمله، والإتيان به في هذه المدة القصيرة (أمين) لا أخون في ذهبه وجواهره وحليه.

(قال الذي عنده علمٌ من الكتاب) وهو آصف بن برخيا، وزير سليمان، وكان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب فوراً ــ ولعل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ــ (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) بمقدار لمح البصر.

ــ 9 ــ

استحسن سليمان كلام (آصف)، وطلب منه إحضار العرش. وقد أراد سليمان بذلك إظهار فضل (آصف) وإلا فالأنبياء هم أقدر الناس على إنجاز المهام ودعاؤهم مستجاب غير مردود.. فدعا الله سبحانه (آصف) أن يحضر العرش، وذكر الاسم الأعظم، وإذا بالعرش العظيم حاضرٌ عند سليمان.

(فلمّا رآه) سليمان (عليه السلام) (مستقرّا عنده) حاضراً لديه، توجه إلى الله سبحانه في ابتهال، (قال هذا من فضل ربي) وإحسانه بالنسبة إلي، وإنما تفضّل علي بهذه النعمة (ليبلوني) أي يختبرني (أأشكر) نعمته (أم أكفر)؟ كفران النعمة عبارة عن عدم شكرها.

ثم أردف سليمان (عليه السلام)، قائلاً: (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) فإن فائدة الشكر عائدة إلى نفس الشاكر ــ كما قال سبحانه: (لئن شكرتم لأزيدنكم) ــ (ومن كفر) ولم يشكر نعم الله تعالى (فإن) ذلك لا يضر الله تعالى لأن (ربي غنيٌ) عن العالمين (كريم) يتفضّل على المؤمن والكافر، فلا يضرّه الكفران.

وتوجه سليمان إلى أصحابه و(قال) لهم (نكّروا لها عرشها) أي غيّروا السرير تغييراً إلى حال تتكره بلقيس ولا تعرفه إذا رأته، إما بتغيير لونه أو تغيير هيكله، وقد أراد سليمان بذلك اختبار عقل بلقيس هل تعرف أنه عرشها أم لا؟ (ننظر) إلى عقلها (أتهتدي) وتعرف أنه عرشها (أم تكون من الذين لا يهتدون)؟

وهكذا تم أمر سليمان، ونكّر العرش، واستعد سليمان للقاء الملكة وقومها ــ والملكة لا تعرف عن أمر عرشها شيئاً ــ .

ــ 10 ــ

لقد أمر سليمان قبل مجيء بلقيس، الجن والبنّائين، أن يعملوا (صرحاً) أي قصراً من الزجاج، وفرش أرض القصر بالزجاج الصافي، وكان ما تحت الزجاج فارغاً، فأمر بملئه ماء، وجعل فيه الأسماك والضفادع، وما أشبه، وجعل سريره في أعلى القصر، حتى إذا

رآه الإنسان غير العارف بحقيقة الأمر، تخيّل أن ساحة القصر مملوءة بالماء والأسماك، وأن سرير سليمان موضوع على الماء.. ولعلّه فعل ذلك إظهاراً للعظمة، حتى تكون بلقيس وقومها أسرع في الإيمان والانقياد ــ إذ قد اعتادت النفوس اتباع العظماء وأهل الجلال والثروة ــ أو لاختبار عقلها هل تعرف الزجاج من الماء أم لا؟

انتهى السير بالملكة وقومها، إلى محل العرش (فلمّا جاءت قيل) لها، والقائل بعض من حضر (أهكذا عرشك)؟ وكانت بلقيس حصيفة، ففكّرت في نفسها: هل هو عرشها أم غيره؟ إن كان هو فكيف جيء به؟ واحتملت قدرة سليمان على مثل هذا الأمر؟ ولذا (قالت كأنه هو) فلم تجب لا بالإيجاب التام، ولا بالسّلب الكامل، وإنما قالت كلمة تحتمل الأمرين، لئلاً تكذّب، إذا خالف كلامها الواقع.

ثم قالت ــ وهي تظهر عدم استغرابها من إتيان سليمان بعرشها ــ : (وأوتينا العلم من قبلها) أي قبل أن تنظر إلى آية سليمان في مجيء العرش (وكنّا مسلمين) لسليمان، ولذا أتيناه (وصدها) سابقاً عن الحق ــ حيث كانت تعبد الشمس ــ (ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) بالله، عابدة هي وقومها للشمس.

ــ 11 ــ

مرّت بلقيس من موضع عرشها، حتى وصلت إلى باب (الصّرح) الذي جلس فيه سليمان، لاستقبالها، فلمّا وصلت، ونظرت إلى الماء والأسماك (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته) توقّفت إذ (حسبته) وظنّت أن الصرح (لجّةً) من الماء.

ثم.. لمّا لم تر بدّاً من الدخول (كشفت عن ساقيها) فرفعت ثوبها، لئلا يبتلّ بالماء (قال) لها سليمان (إنه) ليس ماء بل هو (صرحٌ ممرّدٌ) مملّس (من قوارير) جمع قارورة، وهي الزجاجة.

فدخلت، و(قالت) ضارعةً إلى الله سبحانه، مستغفرة عمّا كانت عليه سابقاً من الكفر وعبادة الشمس (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت) الآن (مع سليمان) فإني مسلمة معه، معترفة (لله رب العالمين).

وقد ورد في بعض الأخبار، أن سليمان (عليه السلام)، رأى ما على رجل الملكة من شعر فأمر الجن أن يصنعوا لإزالة الشعر دواءً، فصنعوا الحمّام واخترعوا (النورة)..

وكان سليمان (عليه السلام) تزوّج بالملكة، وأسلم أهل سبأ، وانتهى الأمر بسلام.. كلّ ذلك بفضل عزم سليمان، وحكمة (بلقيس).

وقد علم ــ هذا النبي العظيم، وهذه الملكة العاقلة ــ الناس، الاهتمام بأمر الدين، وقوة العزيمة في هداية الناس، مهما كلف الأمر حيث لم يقل سليمان: (لنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها...)؟ ثم ... ألم تكن من حكمة بلقيس أنها رجّحت الانقياد لله ولسليمان على الكبر والغرور والبقاء في الكفر والضّلال؟

وهكذا فليتعلّم الناس، هداة ومدعوين إلى الهداية.

ــ 12 ــ

وقعت في زمن (داود) والد (سليمان) عليهما السلام، قصّة دلّت على فضل سليمان ونبله، فقد كان في بني إسرائيل رجل كان له (كرم) شجر العنب، فنفشت ورعت في بستانه غنمٌ لرجل آخر، في الليل، فقضمته وأفسدته.

ولمّا جاء الصباح، وجاء صاحب البستان فرأى الفساد وانجال في بستانه، فجاء بصاحب الغنم إلى داود (عليه السلام) ليحكم بينهما.

لكن داود، أحال الحكم على ولده سليمان، ليظهر للناس علمه وقضاءه ويكون ذلك تمهيداً لخلافته من بعده. فذهبا إلى سليمان ليحكم بينهما.

قال سليمان: إن كانت الغنم أكلت الأصل والفرع، فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها، وإن كانت الغنم ذهبت بالفرع، ولم تذهب بالأصل فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم أولادها فقط دون أصل الغنم.

ولعل هذا الحكم كان لأجل تساوي أصول الكروم للأمهات، وفروع الكروم للأولاد، قيمةً، فكان من باب تطبيق الضّمان على الغنم، كما أنه من الممكن أن هذا كان حكم شريعة موسى (عليه السلام)، فإن داود وسليمان كانا متعبّدين لشريعة موسى.

وبهذا ظهر علم سليمان وفضله على الناس (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) الزرع الذي أكله الغنم (إذ نفشت) رعت ليلاً (فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين) نرى ماذا يحكمان (ففهّمناها) أي القضيّة وحكمها (سليمان وكلاًّ) من داود وسليمان (آتينا حكماً) قضاءً بين الناس (وعلماً) فإن كليهما كان نبياً من عنده سبحانه.

ــ 13 ــ

وذات مرة وقف سليمان (عليه السلام) ليستعرض الخيل التي كان هيأها لجهاد الكفار ــ كما هي العادة في الاستعراضات العسكرية ــ واشتغل بذلك حتى فاتته صلاة نافلة كان يصليها.

فتأثّر سليمان (عليه السلام) من ذلك تأثراً بليغاً، كيف فاتته النافلة وإن كانت هي مستحبة، ولماذا اشتغل بالخيل عن ذكر الله؟

ولذا وقف تلك الخيل في سبيل الله تعالى، حتى يدرك بعض الثواب الذي فاته بسبب تركه النافلة(10).

(ووهبنا لداود) النبي (عليه السلام) (سليمان) وسليمان (نعم العبد) المطيع لله تعالى (إنه أوّاب) كان كثير الأوب والرجوع إلى الله تعالى حتى إنه إذا فاتته نافلة آب ورجع وتدارك ذلك بالإتيان ثواب غيرها (إذ عرض عليه) أي على سليمان (بالعشي) في وقت العصر، الأفراس (الصّافنات) وهي التي تقف على ثلاث، وترفع إحدى قوائمها، وذلك لا يكون إلا في الخيل الجيد (الجياد) جمع جيد.

وطال العرض حتى غابت الشمس، ولم يصل سليمان نافلته المعتادة كل يوم (فقال) سليمان متحسّراً على ما فاته (إني أحببت حب الخير) أي حب الأفراس حتى ألهاني ذلك (عن ذكر ربي) بإقامة النافلة (حتى توارت) الشمس (بالحجاب) فكأنها لما غربت فقد توارت واختفت تحت حجاب الأفق.

ثم أردف سليمان قائلاً: (ردّوها) أي الخيل (عليّ) فردّت (فطفق) أي شرع يمسح (مسحاً بالسوق) أي سيقان الخيل (والأعناق) يمسح عليها عطفاً وحناناً، ويوقفها في سبيل الله سبحانه.

ــ 14 ــ

وقصة أخرى حدثت لسليمان (عليه السلام)، فإنه لما تزوّج ببلقيس (ملكة اليمن) رزق

---

(10) في الآية، اختلاف كثير، ولعل بما ذكرناه يمكن الجمع بين ظاهر الآية، وبين الروايات، وبين عصمة الأنبياء.

منها مولوداً ذكراً.. ففرح بذلك فرحاً كثيراً، ثم خاف عليه من الشياطين أن يؤذوه لئلا يخلف سليمان، فيكونون مسخّرين له كما كانوا مسخّرين للوالد.

ولذا أودع ولده السّحاب ــ وكان ذلك ممكناً لسليمان (عليه السلام)، حيث كان بأمره الكون.

لكن هذا العمل لم يكن ينبغي لمثل سليمان النبي الذي يجب أن يكون في أرقى درجة من التوكل وتفويض الأمر لله تعالى.

ولذا أمر سبحانه ملك الموت أن يقبض روح الولد، فمات الولد وذات يوم جاء سليمان ليجلس على كرسي الحكم ويقضي بين الناس فرأى الولد ميتاً ملقى على كرسيّه.

وهنا عرف أنه كان ينبغي له أن لا يدع الولد للسحاب فإن الموت والحياة بيد الله تعالى، ولذا استغفر الله تعالى (ولقد فتنّا) وامتحنّا (سليمان) لنرى صبره ولننبّهنّم على أن الأولى به أن يكون في درجة رفيعة من التوكل (وألقينا على كرسيه) الذي كان يحكم عليه (جسداً) لولده الميت (ثم أناب) وتاب.

(قال) سليمان: (رب اغفر لي) اعتمادي على السحاب في حفظ الولد ــ وإن كان هذا الاعتماد جائزاً، إذ من الجائز للإنسان أن يدبّر شؤونه حسب الصلاح والحكمة ــ (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) فاستجاب الله سبحانه دعاءه، بل تفضّل عليه حيث يقول: (فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) إلى كل مكان أراد الذهاب إليه.

ــ 15 ــ

وهناك قصة شيّقة من قصص سليمان (عليه السلام)، فقد بنى أبوه (داود) (عليه السلام) بيت المقدس، ولم يكمّله حتى وافاه الأجل. وأخذ (سليمان) في تكميل البناء حتى كملت البناية على أحسن ما يرام.

ثم أمر سليمان الجن الأقوياء بالبناء، فأخذوا في البناء بكل سرعة، وذات يوم وقف سليمان متّكئاً على عصاه ينظر إلى العمل والعمّال. وإذا به يرى شابّاً حسن الصورة إلى جنبه. سأله سليمان: من أنت؟ ومن أذن لك في الدخول عليّ بدون إجازتي؟ قال الشاب:

أنا الذي لا أقبل إرثاً، ولا أهاب الملوك، فعرف سليمان أنه ملك الموت جاءه ليقبض روحه.

فقبض ملك الموت روح سليمان، وهو متّكئ على عصاه، والجنّ يظنّون أنه حي، ويتعجبون كيف لا يتعب؟ وكيف لا يأكل ولا يشرب؟ وكان (آصف بن برخيا) وزير سليمان وخليفته، يدير شأن البناء والعمّال، حتى مضت مدّة طويلة.

(فلمّا قضينا عليه) أي حكمنا على سليمان (الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض) الأرضة (تأكل منسأته) أي أخذت تأكل عصاه، حتى إذا فسدت خرّ سليمان واقعاً على الأرض ــ لذهاب متّكئه ــ (فلمّا خرّ سليمان (تبيّنت الجن) وعرفت (أن لو كانوا يعلمون الغيب) الشيء الغائب عن حواسّهم (ما لبثوا) هذه المدة المديدة (في العذاب المهين) أي تعب العمل الذي كانوا يعملونه لسليمان في بناء ما يريده من الأبنية.

إلى هنا تنتهي مقتطفات من قصة سليمان ابن داود (عليه السلام).

ــ 16 ــ

وقد كان سليمان كسائر الأنبياء، مثالاً للطهارة والنزاهة، والعدل والإرشاد، والزهد والتقوى.

أما ما ينسب إليه في بعض كتب أهل الكتاب، أو كتب بعض المفسّرين والمؤرخين، مما لا يليق بمقام الأنبياء، فذلك غير صحيح، فقد حرّف أهل الكتاب بعض الحقائق جهلاً أو عناداً، ثم تسرّبت تلك الأمور المشوّهة إلى بعض التفاسير وكتب السير.

بقيت نكتة ينبغي التنبيه عليها، وهي:

إن في (بعلبك) بلبنان قلعة عجيبة، بقيت أطلالها إلى هذا اليوم، وقسم من أهل الاطّلاع يقولون: إن هذا ليس من صنع البشر، لعدم وصول وسائل البناء في العصور السابقة، إلى ما يستطيع الإنسان معها من إنشاء مثل هذه (القلعة).

ولعلّ هذه القلعة من بناء (الجن) الذين كانوا مسخرين لسليمان (عليه السلام)، فقد ورد في كتب السير: أن محل سليمان ومسكنه كانا في (بعلبك) مدة من الزمن، وكان يسير منها ــ في البساط ــ إلى بيت المقدس كل يوم، لأجل البناء.

والله العالم بالحقائق، وهو المستعان.

مريم الطاهرة (عليها السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

ــ 1 ــ

كانتا اختين طاهرتين عفيفتين، إحداهما (حنّة) والأخرى (حنانة) وقد سعدهما الحظ.

فتزوّج بإحداهما وهي (حنانة) النبي العظيم زكريّا (عليه السلام).

وتزوّج بالأخرى، وهي (حنّة) الرجل الصالح السعيد (عمران).

لكن من غريب الأمر أن الأسرتين لم يتحفا بأولاد، مدة مديدة من الزمان.

لقد كان زواج حنّة بعمران مباركاً إلى أبعد حد، وكان يسود الأسرة الرفاه والإلفة والسرور.. لكن هذه النقطة، وهي عدم إنجابها الولد، كانت تلقي في نفسيهما الحزن والأسى.

وخصوصاً في نفس الفتاة الحنون، إنها كانت تحب أن ترى إلى جنبها طفلاً يؤنس وحشتها، ويلقي في نفسها البهجة، وتناغيه في أوقات الوحدة.

لكن الأقدار ما كانت تسمح بذلك، وكلّما تقدّم بها السّن، ازدادت كآبة وحسرة، وذات مرّة، رأت طائراً يزق فرخه، فانبعثت في نفسها موجةٌ من الألم المشوب بالأمل، فهل يمكن أن تزرق ولداً تزقه، كما يزق هذا الطائر فرخه؟

وكلّما رأت أمّا إلى جنبها طفل، تذكّرت أملها وألمها.

وهكذا مرّت الأيام عابسة لا ترى فيها بصيصاً من النور، وكانت قلقة لما تعانيه من العقم.

ــ 2 ــ

موجةٌ من السرور غمرت بيت (عمران) حين أخبر زوجته (حنّة) أن الله أوحى إليه أنه يهبهما ولداً.

لقد تهلّلت أسارير وجه (حنّة) وانقلب العبوس في وجهها سروراً، وأخذت تبسم بعد طول كلوح(11).

يا لها من فرحة! إنها ترزق الولد الذي كانت تتمناه منذ لحظة اقترانها بـــ(عمران).

ولم تمض الأيّام واللّيالي، إلا وتحس بأن الجنين يتحرّك في بطنها، فيا للفرحة ويا للسرور! لقد تحقّقت الأماني، وتبسّمت الأيّام، وهاهو الجنين الموعود يتحرّك، دليلاً على رشده ونموّه.

إنها تحسب للجنين ألف حساب وحساب، شأن الأمّهات اللاتي يرجين مستقبل أولادهن.

لكن المرأة الصالحة (حنّة) شكرت لله عطيته، وعرفت لله سبحانه فضله وكرمه، بهبتها هذا الجنين، فأرادت أن تقابل العطيّة بالشكر، فنذرت أن يكون الولد (محرّراً)(12) لخدمة بيت المقدس.

(إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرّراً) عتيقاً لا تشغله أمور الدنيا، بل يكون خالصاً لخدمتك وخدمة بيتك، وخدمة العباد (فتقبّل) يا رب هذا النذير (مني إنك أنت السميع العليم).

وهكذا أخذت (حنّة) تعد الأشهر والأسابيع والأيّام، لمقدم هذا الضيف الجديد، الذي غمر حياتهم بهجة وفرحاً، بعد طول يأس وأسى.

ــ 3 ــ

لم تمض الأيام، إلا و(حنّة) تحس بألم الطلق، فيا له من ألم مفرح، فها هي الساعات الأخيرة، التي تمنح فيها ما كانت تترّقبه بفارغ الصبر.

وإذا.. بالمولود قدّم إلى هذه الحياة، وفتح عينيه للنور.

لكن.. مرّة ثانية غمرت (حنّة) الأمّ، موجةٌ من الحزن، وإن لم يكن الحزن في هذه المرّة، مثل الحزن الذي كان يراودها، وهي حائل.

---

(11) الكلوح: العبوس.

(12) محرر: موقوف لطاعة الله وخدمته.

إنه الحزن بكون الولد (أنثى) فيا لخيبة الأمل، ويا لانهدام الرجاء، فقد كانت ترجو أن يكون المولود (محرّراً) لكن الأنثى لا تصلح للتحرّر، إن المحرّر ولد يناسب دور العبادة، أمّا الأنثى فكيف تعاشر الرّجال؟

ثم إن المحرر يلازم المسجد طول حياته، وإن خرج في ساعات، لم يلبث إلا أن يرجع أمّا الأنثى فلا تقدر على المكث في المسجد في أيام عادتها، ولا مأوى لها لتقضي تلك الأيام هناك.

إنه لا مفرّ من قضاء الله، إنها أنثى، وقد تمّ الأمر، وليس بيد الأم شيء، فسمّتها (مريم) بمعنى (العابدة) ليكون الاسم قريباً مما كانت تقصده من الخدمة للبيت الذي هو للعبادة.

(فلمّا وضعتها قالت) (حنّة) يائسة حزينة، شاكية خيبتها إلى الله سبحانه: (ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) فلا يأتي من الأنثى خدمة المسجد كما كان يأتي من الذكر، (وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك) يا رب (و) أعيذ (ذرّيتها من الشيطان الرجيم) فتلطف عليها وعلى ذرّيتها بحفظك وحراستك، ورعايتك وكلاءتك.

ــ 4 ــ

إن (حنّة) لم تكن تعلم الدور الذي قُدّر لمريم عليها السلام من عالم الغيب، ولم تكن تعلم أنها صديقةٌ طاهرة، لا ترى الدّم، ولم تكن تعلم أنها أفضل من ألف ولد وولد.. فلها الحق في أن تحزن حين تعرف أنها أنثى.

ولو كانت تعرف (حنّة) كل ذلك، لغمرتها موجةٌ من السرور عوض الحزن، والفرح، عوض اللوعة.

ومن ناحية أخرى.. لو كانت تعلم (حنّة) الأم الحنون ما قدّر لبنتها الطاهرة (مريم) من الأتعاب والمصائب، لذرفت الدموع الساخنة، ولعصرت فؤادها الأحزان والأشجان.

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي مصاعب (الولادة) لوليد بدون أب! وهل يقبل منها أحد ذلك؟ إن مثل هذه الفاجعة لتدكُّ الجبال الرواسي، فكيف بقلب فتاة طاهرة بريئة؟؟

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي لوم اليهود وقذفهم، وافتراءهم[13]، بما تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتتشقّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً.

إن (مريم) الطاهرة، لابد وان تلاقي ــ بعد هذا وذاك ــ مصاعب نبوّة ولدها المسيح (عليه السلام)، وكيد اليهود له، وغربتها وغربة ولدها، في الفيافي والجبال، حيث تلفحهما الشمس بحرارتها، وحيث لا يجدان ملجأ ولا مأكلاً ولا ملبساً، إلا عشب الأرض وكهوف الجبال والأسمال البالية.

إن (حنة) الأم الرؤوف لا تعرف ذلك المستقبل الإلهي المشرق، ولا ذلك المستقبل الاجتماعي الأليم، لبنتها الصغيرة (مريم) وإنما تعرف أنها (أنثى) وأنها خابت في ظنونها ورجائها.

ــ 5 ــ

وأخيراً.. استقرّ رأي (حنة) على أن تهدي بنتها (مريم) إلى بيت المقدس، كما نذرت والعبّاد هم يعرفون تكليفها، ما يصنعون بها؟

ولقد كان الأشد على (حنّة) أنها كانت تقاسي كلّ هذه الآلام والحيرة، وحدها، فقد فقدت زوجها (عمران) قبل ولادة (مريم) مما زاد في حزن الأمّ وألمها.. لقد مات الزوج الشاب الصالح قبل أن يرى الوليد الذي طالما تمنّاه، يا لها من مصيبة على قلب (حنّة)! ويا لها من دمعة في مآقيها! ويا لها من غصّة في حلقها!

فلقد فقدت الزوج والكفيل، وبقيت تقاسي آلام الحياة وحدها، ثم خاب ظنّها بالجنين الذي عقدت ــ بعد فقد الزوج ــ آمالها عليه، لعلّه يكون ولداً، تعيش الأم في ظله بدلاً من أبيه!

وما فائدة الحزن واللوعة؟ فالمقدّر كائن.

لفّت (حنّة) بنتها الوليدة في القماط، وتقدّمت إلى بيت المقدس، حيث العبّاد. ثم سلّمتها إلى جماعة من الناسكين الذين كانوا لربهم يرهبون، وقصّت لهم قصّتها..

تهافت الناسكون على أخذ البنت، بكل شوق وسرور، عندما علموا أنها بنت زميلهم الفقيد (عمران) وابنة أخت زوجة سيّدهم ونبيهم زكريا (عليه السلام).

---

(13) القذف: الاتهام بريبة، والافتراء: الكذب.

وحيث أن الرضيع تحتاج إلى عناية ورعاية، حتى تكبر وتنمو وتنشأ، وقع بينهم الخلاف فيمن يكفلها؟ فكان كل واحد يرشّح نفسه لكفالتها، وكان (زكريّا) من جملة المرشّحين نفسه لذلك، ويحتج بأنه أحق لأن (مريم) تمت إليه بصلة، وأن في داره خالة مريم (حنانة).

ـ 6 ـ

لم يقبل الأحبار أن تسلّم البنت إلى (زكريّا) زوج خالها، بالرغم من صحة احتجاج زكريّا. وأخيراً قرّروا جميعاً الاقتراع، بأن يلقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة، في الماء، فالقلم الذي يطفوا فوق الماء يتولّى صاحبه تربية (مريم).

وقد كانت الأقلام من الحديد، ولذا كان طفوّها على الماء شيئاً خارقاً(14).

(وما كنت لديهم) يا رسول الله (إذ يلقون أقلامهم) في الماء (أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) في أمر كفالة بنت زميلهم؟

ولعلّ الأحبار إنما اختصموا في هذا الأمر، لما وصل إلى علمهم، من جلالة مريم، ومستقبل أمر عيسى (عليه السلام)، فإن الأنبياء السابقين كانوا يبشرون بالأنبياء اللاحقين، كما أن الأنبياء اللاحقين كانوا يصدّقون بالأنبياء السابقين.

ولعل مناسبة الاقتراع بالأقلام بمناسبة الإرهاص بنبوّة المسيح (عليه السلام) المناسب لكتاب الإنجيل، المكتوب بأقلامهم.

وكيف كان.. فقد رسبت أقلام الأحبار في الماء، وبقي قلم زكريا طافياً فوق الماء فوافق الجميع على أن تكون مريم في كفالة زكريا.

وماذا كان يعمل زكريّا أيّام رضاع البنت؟ هل أخذ لها مرضعاً؟ أو جعلها في بيت المقدس وكان يأتي باللبن إليها؟ ثم ماذا كان يصنع بسائر شؤونها؟ كل ذلك مما لا نعلمه.

نعم.. (تقبّلها ربها بقبول حسن) فإنها وإن كانت أنثى، لكن ربها قبلها محرّرة في بيت المقدس (وأنبتها نباتاً حسناً) فكانت تنمو نمواً سريعاً، بكل نظافة ونضارة مما كان يبشّر بمستقبل زاهر.

---

(14) الخارق: ما يخالف العادة.

ــ 7 ــ

وضع زكريا (عليه السلام) مريم الطاهرة في غرفة رفيعة منعزلة عن محل الأحبار، لا يمكن الوصول إليه إلا بسلم عال.

وأخذ يواظب على رعايتها والعناية بها، فكان يأتي إليها في كل حين، ليتفقّدها، ويقوم بخدماتها.

وهكذا استمرّ زكريّا في خدمة البنت الطاهرة، حتى نشأت وكبرت، وذات يوم دخل عليها، وإذا به يرى بعض الفواكه والأطعمة الطيبة عندها.. دهش لذلك. يا ترى من الذي جاء إلى غرفتها، وأهدى إليها هذه الهدية الحسنة؟ أليست الغرفة مغلقة؟ أليست هي التي لا ترضى أن يدخل عليها أحد؟

وهكذا وجد الرزق عندها مرّات ومرّات.. والأعجب أن الفواكه التي كان يجدها عند (مريم) تثير الدهشة، ففواكه الشتاء يجدها عندها في أيام الصيف، وفواكه الصيف، يجدها عندها في أيام الشتاء؟

(كلّما دخل عليها زكريّا المحراب) أي في محراب عبادتها، وفي الغرفة الخاصّة بها (وجد عندها رزقاً) وذات مرّة سأل زكريا (مريم) عن مصدر هذا الرزق (قال يا مريم أنى لك هذا)؟ فمن أين يأتيك هذا الطعام وهذه الفواكه؟

(قالت) مريم: (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) هناك عظم تقدير زكريّا لمريم وعلم أنها مائدة سماوية، اختص الله بها مريم كرامةً لها وإجلالاً لقدرها.

وكم كانت غبطة زكريّا عظيمة حين رأى مثل هذه الكرامة لفتاة تمتّ إليه بصلة!

ــ 8 ــ

أخذت الأيام تمضي مسرعة، والفتاة مشتغلة بتبتلها وعبادتها، خالصةً لوجه الله تعالى، لا تعرف أسرة تعوقها عن العمل لله، ولا منيت بعمل دنيوي، يحول بينها وبين الاستمرار في الطاعة والعبادة. وذات مرة دهشت أشد الدهشة، مما وقف له شعرها، ووجب(15) له

(15) وجب: رجف وخفق.

قلبها، إذ سمعت صوتاً من جهة الأعلى، ولم تر الشخص الذي كان يتكلّم بكلام عجيب، قائلاً:

(يا مريم إن الله اصطفاك) اختارك لأن تكوني مورد لطفه وعنايته (وطهّرك) عن الذنوب والأرجاس(16)، وعن الدماء التي تراها النساء (واصطفاك على نساء العالمين) فأنت سيدة نساء زمانك ــ بكل عوالمه ــ .

أمّا سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فهي (فاطمة الزهراء) بنت محمد (صلى الله عليهما وعلى آلهما).

ثم أردف القائل الغيبي كلامه: (يا مريم اقنتي) واخضعي (لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) الأحبار الذين يركعون في بيت المقدس، فأنت من جملتهم وفي جماعتهم.

تهلّلت أسارير (مريم) لهذا النداء الغيبي، وعرفت أن النداء كان من الملائكة، وأنها موضع لطف الله وحسن رعايته، فاستبشرت وفرحت، وأخذت تجد في العبادة، شكراً لهذه العطية السنيّة، وقياماً بالواجب تجاه هذه النعمة الجليلة.

وهكذا مضت عجلة الزمان، لا تلوي على شيء.

فها نحن أمام فتاة عفيفة طائعة لربها في غرفة منعزلة في بيت المقدس، يعاهدها زوج خالتها، منقطعة عن الأب والأم، فقد مات أبوها قبل أن ترى النور، والأمّ سلّمتها بيد الزهاد (محرّرة) لا شأن لها بها، لتنظر ما خبّأ لها المستقبل.

ــ 9 ــ

لقد أثارت المكرمة التي رآها (زكريا) في (مريم) كامن رغبته، التي طالما تمنّاها، في أن يرزق الولد، أليست زوجته (حنانة) وأم مريم (حنة) أُختين؟ ألم تكونا تنتظران الولد منذ مدّة؟ فها هو لطف الله سبحانه يشمل (حنة) فيهبها البنت الطاهرة (مريم) فما المانع من أن يتفضّل الله سبحانه على زكريا بولد من خالة مريم؟

---

(16) الأرجاس: الأعمال القبيحة.

إن أيّام زكريّا قد انقضت، وإن نذير الموت قد لاح في مفرقه، وإن المرأة (حنانة) زوجة زكريّا، اشتهرت بين الناس أنها عقيمة، ولا أدلّ على صدق قول الناس من أنها لبثت هذا الزمان الطويل، بدون ولد.

لكن الله قادر على كل شيء، فهو يستطيع أن يخلق الإنسان من التراب.. وقدرته على إعطاء الولد من أبوين أولى ــ وإن كانت قدرة الله بالنسبة إلى كل شيء على حد سواء ــ .

(هنالك) في هذا الوقت، بقلب ملؤه الرجاء (دعا زكريّا ربه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرّيةً طيّبةً) فيها طيب العقيدة والأخلاق والبركة (إنك) يا رب (سميع الدعاء).

وقد أشفع زكريا دعاءه هذا بالضراعة والاستكانة، فقال: (ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً) فعظمي واهن ضعيف من الكبر ورأسي مبيض كأنه شعلة من الشيب (ولم أكن بدعائك ربي شقيّاً) فلا أحرم الإجابة فيما دعوتك (وإني خفت الموالي) أقاربي (من ورائي) من بعدي، فإنهم لا يليقون بمقام الخلافة لي والسهر على الدين ومصالح الأمة (وكانت امرأتي عاقراً) لا تلد.

وقد استجاب الله دعاء زكريّا، وتفضّل بإعلامه ذلك، فقال عزّ شأنه: (يا زكريّا إنا نبشّرك بغلام اسمه يحيى) فقد عيّنّا اسمه، تفضّلاً منا عليه وعليك، و(لم نجعل له من قبل سميّاً) فكان يحيى ابن خالة مريم.

ــ 10 ــ

دارت عجلة الأيّام على (مريم) وهي تعبد الله في محرابها، داخل بيت المقدس ولم يكن لها عشيق، ولا زوج، ولا خدن[17]، ولا خطيب.

أما حديث يوسف النجار، فحديث مفتعلٌ[18] اخترعه مردة أهل الكتاب.

كما أنها لم يكن لها أولاد آخرون، يقوم المسيح (عليه السلام) بكفالتهم، من مهنة النجارة.

---

(17) الخدن: الحبيب والصاحب.

(18) مفتعل: مختلق.

إنها مريم الصديقة العذراء التي لم تر رجلاً، ولم يكن لها ولد إلا عيسى المسيح (عليه السلام).

وفيما كانت تعبد (مريم) ربّها تبدّلت الأحوال فجأة، فقد أرادت الاغتسال، فانتحت ناحية المشرق، بحيث صار أهلها في طرف المغرب، ولعلّها جاءت إلى طرف المشرق من بيت المقدس، لكونه في جهة الشمس فيناسب الاغتسال (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) انتبذت، أي تنحّت في مكان في طرف المشرق من مسكنها. (فاتخذت من دونهم حجاباً) يسترها عن أعينهم (فأرسلنا إليها روحنا) أي روحاً من طرفنا ــ والإضافة للتشريف ــ وكان ذلك الروح جبرائيل (عليه السلام). (فتمثّل) ذلك الروح (لها) أي لمريم (بشراً سويّاً) أي شاباً مكتملاً غير ناقص.

لكن مريم الطاهرة، اضطربت حين رأت هذا الفتى في مثل هذه الحالة، أشد الاضطراب، فإن البنت الباكر العفيفة، إذا اتفق لها مثل هذا الحادث ترتعد وتخاف على شرفها، أليس مثل هذا الشخص، الذي يفاجئها يريد عفافها. وماذا تصنع مريم وهي فريدة لا تملك سلاحاً ولا دفاعاً؟

ولذا لم تملك مريم عليها السلام إلا الوعظ والنصيحة، والاستعاذة بالله سبحانه من شره (قالت إني أعوذ بالرحمن منك) أيها الفتى (إن كنت تقيّاً) تخاف الله سبحانه.

ــ 11 ــ

لكن الفتى أجاب مريم بما زاد مخاوفها (قال) جبرائيل (عليه السلام): (إنما أنا رسول ربك) مرسل من قبله، ولست بشراً، كما ظننت، فقد جئتك (لأهب لك غلاماً زكيّاً) ولداً مباركاً.

يا للهول! هل تصدّق مريم بأن هذا جبرائيل؟ ثم لنفرض أنه جبرائيل، فكيف يهب لها غلاماً بدون زوج؟ ولنفرض أنه وهبه بأمر الله، فماذا تقول مريم للناس؟ هل يصدّقها الناس ويعترفون بالواقع أم يفترون عليها بما لا يليق بساحتها؟

كل ذلك مر بخاطر مريم ــ كما هو الطبيعي، في أقل من لمحة بصر ــ لكن هول الموقف، لم يعقد لسانها، بل أخذت تحاج وتكلم جبرائيل: (قالت أنّى) وكيف (يكون لي ولد و) الحال أنه (لم يمسسني بشرٌ) فلم يقترب مني رجل اقتراب الزوج من زوجته، (ولم أكُ

بغياً) زانية؟ فإن الولد ــ في العادة ــ يكون إما من الزواج أو السفاح، ولم يحصل لي أحد الأمرين، فكيف يكون لي ولد؟

(قال) جبرائيل في جواب سؤال مريم: (كذلك) أي كذا الذي ذكرت لك (قال ربك) يا مريم: (هو عليّ هيّن) إعطاء الولد بدون نكاح أو سفاح على الله أمرٌ سهل يسيرٌ. فإن قدرته سبحانه عامّةٌ على كل شيء.

ثم بيّن جبرائيل أن إعطاء الولد لك بدون أب ليس أمراً اعتباطياً بل (ولنجعله آيةً للناس) حجةً لله على البشر، حجة من حيث القدرة وحجة من حيث النبوة (ورحمةً منّا) فإن المسيح (عليه السلام) كان رحمةً من الله على البشر، يرشدهم إلى الحق وإلى سبيل السعادة والسلام.

ثم أردف جبرائيل قائلاً: (وكان) إعطاء الولد لك (أمراً مقضياً) لا بد وأن يكون، فليس محل احتجاج، وطلب، لرفع هذا الشيء المقدر، وذلك ليقطع على مريم سبيل المحاورة والمحاجّة حول الولد، فلا تترقّب صرفه بالدعاء وما أشبه.

ــ 12 ــ

نفخ جبرائيل (عليه السلام) في جيب مريم عليها السلام، فاكتمل عيسى في بطنها في الساعة (فحملته) أي حملت بعيسى (فانتبذت) أي ابتعدت وتنحّت (به) أي بحملها (مكاناً قصيّاً) أي بعيداً عن أهلها، وذلك لئلاً يروها على حالة الحمل فيلوموها، وتكون مورد سؤالهم.

وقد ورد أن مدّة حملها كانت تسع ساعات.. وأنها جاءت إلى كربلاء المقدسة بقدرة الله تعالى، وليس مثل هذه الأمور بعيداً عن قدرة الله تعالى.

(فأجاءها المخاض) أي ألجأها الطّلق ووجع الولادة (إلى جذع النخلة) لتستند إليها والجذع ساق النخلة.. وكم كانت الأحزان والهموم تتراكم على قلب المخدّرة[19] الطاهرة مريم، إذ ترى نفسها في وضع غريب، ليست له سابقةٌ في تاريخ الفتيات الصالحات؟

---

(19) المخدّرة: المستترة في بيتها لا تخرج منه.

فقد أخذت منها الدهشة كل مأخذ، كيف حملت؟ وكيف تفرّدت في صحراء قاحلة للوضع؟ وكيف يلقاها الناس؟ وما هذا الولد؟ وأي أمرٍ مقدّر هذا؟

ومن الطبيعي أن تنهمر عينا الصديقة الطاهرة بالدموع، (قالت) بكل لوعة وأسى: (يا ليتني متُّ قبل هذا) الذي أراه مما وقعت فيه (وكنت نسياً منسياً).

وفي هذه الأثناء، جاءت بعيسى المسيح، ولداً جميلاً، كامل الخلقة، يطفح وجهه المنير بالبشر والسرور، كفلقة القمر ليلة البدر.

وبمجرّد أن سقط عيسى على الأرض، ورأت مريم وجهه المبارك، جعل الله في قلبها محبته المتزايدة، وكأنّ يد الرحمة لمست قلب الأم، فأعادت إليه الطمأنينة والارتياح..

إنه ليس بولد عادي كسائر الأولاد، بل هو نبي عظيم ادّخره الله سبحانه لأداء رسالة مهمة.

ــ 13 ــ

وهنا لتسلية قلب الأم، وإقناعها أن الأمر من الأمور المرتبطة بالسماء، أنطق الله الولد (فناداها) أي كلّم المسيح، أمّه (من تحتها) أي الأسفل، من الأرض، قائلاً: (ألاّ تحزني) يا والدتي، من هذا الحادث (قد جعل ربك تحتك سريّاً) أي جدولاً سارياً من الماء، فقد ضرب المسيح برجله على الأرض ــ كعمّه الأعلى إسماعيل (عليه السلام) ــ فانفجرت الأرض ماءً.

(وهزّي) أيتها الأمّ (إليك) أي اجذبي نحو نفسك (بجذع النخلة) الموجودة إلى جنبك، ليقع فيها الاهتزاز، فإن هززته (تساقط عليك رطباً جنيّاً) طريّاً قد جني الساعة.

وكذلك فعلت الأم الوالدة، هزّت الجذع، فأسقط الرطب (فكلي) من الرطب (واشربي) من الماء (وقرّي عيناً) أي طيبي نفساً بهذا الولد.

فأكلت مريم من الرطب، وشربت من الماء، وقرّت عينها بولدها.

ولماذا تخاف وتقلق؟؟

لقد ذهبت عنها وحشة الانفراد، بولدها الجميل، وذهب عنها ألم الطّلق، وارتوت من الماء، وشبعت من الرطب الجنيّ، وفوق ذلك كلّه إنها تعلم إمداد السماء لها، فقد تواترت الخوارق عليها:

رأت الملائكة، وحملت بلحظة بدون رجل، وانطوت تحتها الأرض مسافات شاسعة من فلسطين إلى العراق، ولم يطل حملها أكثر من تسع ساعات، ثم انفجرت عين الماء تحت رجل ولدها، وأخذ الرضيع يتكلّم..

وهل بعد هذا كله من قلق واضطراب؟

ــ 14 ــ

نعم.. بقي شيء، فبماذا تجيب الناس، إذا سألوها عن أمر الوليد؟ إنها حقّاً مشكلة تقلق بال الإنسان، ولو علم أنه على حق.

وقد شاء سبحانه أن يحل المسيح الوليد (عليه السلام) هذه المشكلة، فيتكلّم ثانية ليقول لأمه:

(فإمّا) أي إن (ترينّ) أيتها الأمّ (من البشر أحداً) فسألك عن الولد: من أين أتيت به من غير زوج؟ (فقولي) في الجواب، إشارةً مفادها: (إني نذرت للرحمن صوماً) وكفّاً عن الكلام (فلن أكلّم اليوم إنسياً).

وقد كان ذلك، لأجل أن لا يرهقها الناس بالمجادلة. وإنما تكتفي بكلام المسيح (عليه السلام) جواباً عن أسئلة الناس.. فيكون جواباً وحجة.

وهنا فرحت مريم أشد الفرح، إذ انحلّت كل مشكلتها، وانجلى ما بها من هموم وأحزان.. فقمّطت الوليد، وأخذته قاصدة نحو أهلها (فأتت به) أي بالمسيح (قومها تحمله) على يديها، ولمّا رآها القوم غمرتهم موجة من العجب، فها هي مريم الطاهرة الصديقة، تحمل طفلاً؟ من أين؟ وكيف؟ ولذا تقدّموا إليها و(قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً) أي أمراً عظيماً عجيباً.

(يا أخت هارون) يا أيتها الشبيهة بهارون الرجل الصالح ــ وقد كان هارون رجلاً صالحاً يشبه به كل من عرف بالصلاح ــ من أين لك هذا الولد من غير زوج؟ أمن السفاح وكيف ذلك؟ فإنه (ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) يعمل القبيح (وما كانت أمك) حنّة (بغيّاً) حتى نقول إنك تعلّمت البغاء منهما؟ فمن أين لك هذا الولد؟

ــ 15 ــ

لم تجب مريم على كلام القوم، (فأشارت إليه) إلى عيسى، حسب ما قرّر بين الرضيع والوالدة، إشارة معناها: وجّهوا سؤالكم إلى عيسى؟

(قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً)؟ وهل يتمكّن الرضيع الذي من شأنه أن يوضع في المهد من التكلّم والجواب؟

لكنّ الرضيع بادر بالجواب ــ بإذن الله تعالى ــ ليجيب جواباً مقنعاً، مشفوعاً بإعجاز، فــ(قال) موجّهاً كلامه إليهم: (إني عبد الله) وقد فنّد المسيح (عليه السلام) بأول كلامه عندهم مزاعم المسيحيين أنه الله، أو أنه ابن الله (آتاني الكتاب) أعطاني الإنجيل (وجعلني نبيّاً) فقد أوتي عيسى كسائر الأنبياء، النبوّة والكتاب، منذ عالم الذَّر، وإنما الإظهار كان في وقت متأخر.

(وجعلني) الله (مباركاً) ذا بركة ونموّ للخير (أينما كنت) لا كالمثري الذي له الثراء عند دكانه وصندوقه، أو كذي المنصب الذي له مقامه في مكان دون مكان. (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً) مكلّفاً.

(و) جعلني (برّاً) أي بارّاً رؤوفاً (بوالدتي) الطاهرة مريم (عليها السلام) (ولم يجعلني جبّاراً) يؤذي الناس ويجبرهم كالطغاة (شقيّاً).

(والسلام عليّ) السلامة من العاهات الجسمية، والأوضار الروحية (يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً).

وحيث سمع الناس هذا الكلام البديع من عيسى، أخذتهم الدهشة، وعلموا أن الأمر خارق، وإنما أراد الله بمريم الصديقة الخير والسعادة، حيث أتحفها بهذا المولود العظيم، وانقطع المجادلون عن الكلام بعد هذه المعجزة الباهرة.

تمادى اليهود في غيّهم وطغيانهم

ــ 1 ــ

وقد تصدّروا مكان السادة العلماء، والملوك الأمراء، في الأرض، فقد كانت لهم السلطة

الدينية، والسلطة الدنيوية. فهم كل شيء.. وغيرهم ليس بشيء.. وقد اشتدّت قبضتهم على الأمم الضعيفة، فأخذوا يعيثون في البلاد فساداً.

والكل منتظرون لقدوم (المسيح) الذي بشّر به الأنبياء.

الضعفاء ينتظرون قدومه ليخلّصهم من براثن الأقوياء.

واليهود ينتظرون قدومه، لزعمهم أنه يزيدهم قوّة، وسلطة على سلطة.

وفي ذات يوم.. رأى الجميع أغرب الحوادث، فقد جاءت (الصديقة الطاهرة مريم) وهي تحمل طفلاً جميلاً على ذراعيها!

من هذا يا مريم؟! هكذا قالوا، بلسان واحد، مستغربين أن تأتي مريم العذراء بطفل؟

أشارت مريم إلى الطفل أن كلّموه، فإنه هو الذي يجيب عن هذا السؤال.

وهنا أخذ (المسيح) الطفل، يتكلّم، قائلاً: (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً).

إذن.. يا للفرحة، إنه هو الطفل الذي طالما انتظره الأقوياء والضعفاء على حد سواء قد جاء؟

لقد جاء المخلّص، وقد جاء المسيح الموعود. وليس بينهم وبين الخلاص، إلا سنوات، حتى يكبر هذا المولود، ويبلغ مبلغ الرجال، فهو الملك النبي الذي ينقذهم من كل مكروه.

ــ 2 ــ

أخذ المسيح ينمو، لا كنمو الأطفال بل نموّاً مستغرباً، وقد أخذت الألباب الدهشة، لما رأوه في الوليد.

فقد كان عيسى يخبر الأطفال ــ حينما يجتمع بهم ــ بما أكلوا في غذائهم، وما ادّخروه في بيوتهم، وكان ذلك مما يثير عجب الأولاد، والآباء.

وقد كان الكل يعلم أن له مستقبلاً زاهراً، وكان يضاف إلى ذلك، الغرائب التي يشاهدونها حوله.

ففي مرة جاء وفد من عظماء المجوس إلى مريم الطاهرة، مما لفت انتباه الجميع، يا ترى ماذا يريد هؤلاء؟ وكيف تعرّفوا على هذا البيت؟ ومن أين عرفوا هذه المخدّرة الصالحة؟

لما وصلوا إلى دار مريم، سلّموا عليها، وأكبروها، ثم قالوا:

إنا قوم ننظر في النجوم، فلما ولد ابنك طلع بمولده نجمٌ من نجوم الملك ــ مما دل على أنه ولد ملك على الأرض ــ وبعد أن دقّقنا النظر، رأينا أن ملك هذا المولود، ليس من قبل ملك ملوك الأرض.. وإنما ملك نبوة مما لا يزول، ولا يفارقه حتى يرفع إلى السماء ويصير إلى ملك أطول.

ولمّا رأينا ذلك أخذنا نتتبع البلاد، بلداً بلداً، حسب تطلّع النجم المذكور، حتى رأيناه فوق هذا البلد.. وبذلك عرفنا موضع المولود العظيم.

ثم إن عظماء المجوس، بعد ما تبيّنوا صدق تنبؤهم.. ورأوا آثار العظمة في المسيح (عليه السلام) قدموا لمريم الصديقة، هدية غريبة (الذهب، والمرّ، واللبان). ثم قالوا في سبب إهدائهم هذه الهدية:

الذهب: هو سيد المتاع كله، فإهداؤنا له إشارة إلى أن ابنك سيد الناس.

والمرّ: يجبر الجراحات، فهو إشارة إلى أن ابنك يُبرئ الجراحات والأمراض والجنون والعاهات.

واللبان: إذا أُشعل ارتفع دخانه في أجواء الفضاء. فهو إشارة إلى أن ابنك يرفع إلى السماء ولا يرفع إلى السماء غيره. ثم ودّعوا الصديقة مريم، بعد ما أوصوها بابنها خيراً، وذهبوا قافلين..

ــ 3 ــ

بعدما كبر المسيح، أخذ يبشّر الناس بدينه، وأنه المبعوث من قبل الله تعالى لهداية البشر من الضلالة، وإنقاذهم من براثن الجهالة، وتعليمهم ما حرّفته اليهود من أحكام الشريعة.

(إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك) بأن جعلتك نبيّاً عظيماً، (وعلى والدتك) حيث أنعمت عليها بأنواع النعم التي منها، هبتك لها.

(وإذ أيدتك بروح القدس) الروح المقدس الذي يلازمك ويسدّدك، ويريك الغيب، وينزل عليك من الله بالشريعة (تكلّم الناس في المهد) حين كنت طفلاً رضيعاً (وكهلاً) حين كنت كبيراً تكلّمهم بالوحي والشريعة الملهمة بك.

(وإذ علّمتك الكتاب) الكتب السماوية (والحكمة) معرفة الأشياء ومواضعها، فلا تقول ولا تفعل شيئاً إلا بالصواب (و) علّمتك (التوراة) كتاب موسى (عليه السلام) (والإنجيل) الكتاب المنزل عليك.

(وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني) كمجسّمة الطير (فتنفخ فيها) في هيئة الطير، (فتكون طيراً) يطير كسائر الطيور (بإذني).

(وتبرئ الأكمه) الأعمى الذي ولد أعمى (والأبرص) الذي صارت على جسمه بقع بيضاء تخالف لون جسمه (بإذني وإذ تخرج الموتى) من قبورهم أحياء (بإذني).

(وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيّنات) الأدلة الواضحة (فقال الذين كفروا منهم إن هذا) ما هذا الذي تعمله من الغرائب (إلا سحرٌ مبين).

فقد أبى مردة اليهود، الإيمان بالمسيح (عليه السلام)، وإن رأوا منه الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، وذلك حسداً منهم وكبراً.

فكانوا يكذبون المسيح، ويغرون السفهاء به، ويقولون إن الذي يأتي به ليس معجزة، وإنما هو سحر، تعلّمه المسيح من بعض الساحرين، فيأتي به لدعم ادّعائه بأنه نبيّ من عند الله تعالى، وهكذا كانوا يصدّون عن سبيل الله.

ــ 4 ــ

لقد كان الأنبياء يأتون بالمعجزات الخارقة، دلالة على صدق كلامهم، أنّهم من قبل الله تعالى، ولولا المعجزة لادّعى كل شخص أنه نبي مبعوث!

وكانت معجزات الأنبياء حسب اقتضاء زمانهم، مثلاً:

موسى (عليه السلام) بعث في زمان كثر فيه السحر والشعبذة، وكان السحرة يملأون الحبال والعصي بالزئبق فيضعونها في الشمس فتتحرك تلك الحبال والعصي بتحرّك الزئبق داخلها، فيقولون للناس: انظروا كيف صنعنا من الحبال والعصي حيّات وأفاعي متحركة ذات حياة.

ولذا جاء موسى بما يشبه سحرهم، لكنه حقيقة لا خيال، فكان إذا ألقى عصاه من يده، صارت حيّة عظيمة تبتلع حبال السحرة، ثم ترجع عصا كما كانت، من دون أن يزيد في ضخامتها شيء.. ولذا آمن السحرة لما رأوا أنها ليست بسحر.

والمسيح (عليه السلام)، كان في زمان كثر فيه الطب، وحذق الأطباء، إلى حد مدهش، فجاء عيسى بما يعجز عنه الطب، من إبراء الأعمى وشفاء الأبرص، وإحياء الموتى.

وأي طبيب يقدر على هذه الأمور، مهما بلغ من السّمو في الطب؟

ولذا آمن أهل فن الطب والحذّاق منهم بالمسيح، وقالوا: إن ما يفعله خارج عن نطاق الطب، وهو خاص بالله سبحانه، وبمن أرسله.

ونبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث في زمان قويت فيه البلاغة، والفصاحة، حتى إن الأعراب والقبائل، كانوا يعقدون الأسواق، للمباراة في البلاغة والأدب والفصاحة والشعر، كسوق (عكاظ) وغيره.

فجاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقرآن العظيم، الذي هو فوق كلام الناس، وأرفع من مستوى أعظم البلغاء، ثم تحدّاهم، قائلاً: (فأتوا بسورة من مثله).

لكنهم ارتدّوا، وعجزوا، واعترفوا بأنه ليس مثل كلام البشر، وبذلك ثبتت الحجة عليهم وأنه منزلٌ من قبله سبحانه.

ــ 5 ــ

لقد كان المسيح (عليه السلام)، يعيش عيشة بسيطة متواضعة، ويسيح في الأرض، يسافر من قرية إلى قرية، ومن بلد إلى بلد، ليرشد الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وقد كان أحد أسباب التفاف الناس حوله، هذه البساطة المدهشة في معيشته، فلا زوجة له، ولا دار، ولا أثاث، ولا أموال.

وكان إذا قيل له في ذلك، أجاب بهذا الجواب الذي يقطر عطراً وأرجاً:

خادمي يداي.. ودابّتي رجلاي..

وفراشي الأرض.. ووسادي الحجر..

ودفئي في الشتاء مشارق الشمس..

وسراجي بالليل القمر..

وأدامي الجوع.. وشعاري الخوف..

ولباسي الصوف..

وفاكهتي وريحانتي ما أنبتت الأرض للوحوش والأنعام..

أبيت وليس لي شيء.. وأصبح وليس لي شيء..

وليس على وجه الأرض أحد أغنى مني.

هكذا كان المسيح الطاهر، فلا خادم له يخدمه، وإنما كان يقضي حوائجه بكلتا يديه الكريمتين، بل فوق ذلك، ربّما غسل أرجل تلاميذه، فكانوا ينكرون ذلك منه، فيقول لهم: بحقي عليكم إلا ما خلّيتم، وإنما أفعل ذلك بكم، لتفعلوا مثله بالناس من بعدي.

ولم تكن له دابّة يركبها، في أسفاره المتتالية، وإنما كان ينتقل من هنا إلى هناك ماشياً، وأحياناً حافياً.

كما أنه لم يكن له بساطٌ يفترشه وقت المنام، ولا وساد إلا الحجر، وإذا أصبح في الشتاء القارس توجه إلى نحو المشرق من البيوت، لئلا تحول الأبنية والحيطان دون إشعاع الشمس على جسمه المقروف.

ولا سراج له ليلاً، وغالب أوقاته يطويه جوعاً، وكان خائفاً من الله سبحانه، وإن كانت البسمات الحلوة الهادئة لا تبرح شفاهه.. يلبس الصوف تواضعاً، ويأكل نبات الأرض عوض غذائه.

ــ 6 ــ

كان بنو إسرائيل لكثرة لجاجهم وانحرافهم، أوجبوا شدة بعض الأحكام عليهم حتى إذا جاء عيسى المسيح (عليه السلام)، خففت الأحكام، وأنزلت الشرائع السّمحة، وكان ذلك لطبيعة البشر.. فقد كان البشر في زمن الكليم، مثلهم مثل التلاميذ في المدارس الابتدائية، ثم انتقلوا ــ بصقل الشريعة الموسوية لهم، وبتقديم الحضارة الإنسانية ــ إلى الدور الثانوي، فكان مثلهم مثل التلاميذ في المدارس الثانوية، في زمن ظهور المسيح (عليه السلام) حتى إذا جاء نور رسول الإسلام، كان البشر في دور ثالث، ولذا جاءت الصيغة الأخيرة من الشريعة وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[20].

---

(20) .

وقد أُنزلت على عيسى (عليه السلام) في (الإنجيل) المواعظ والأمثال والحدود ــ ليس فيها قصاص ولا أحكام حدود، ولا فرض مواريث ــ ولعل ذلك كان بسبب بقاء شريعة موسى (عليه السلام) التي فيها كل هذه الأشياء.

وأنزل على المسيح تخفيف ما كان نزل على موسى (عليه السلام).. فقال المسيح للقوم: (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم). وقد أمر المسيح اتباعه باتباع (التوراة) وما أنزل على النبيين من قبله.

كما أخبرهم بمجيء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخذ منهم الميثاق بأن يؤمنوا به.

وعندما انتشر خبر شفاء المسيح للمرضى، توجه إليه من أطراف البلاد عددٌ كثيرٌ من المرضى الذين كانوا مصابين بأمراض مزمنة، أو نواقص خلقيّة.. حتى إنه ذكر بعض المصادر أن المسيح (عليه السلام) شفى ــ بإذن الله تعالى ــ في حقبة غير طويلة من الزمن ــ خمسين ألف إنسان وهذا غير بعيد عن طبيعة الناس، الذين يجتمعون بهذه الكمّيات، لشبعة بطن أو ما أشبه فكيف للشفاء من الأسقام، والتكميل لنواقصهم الخلقية، كالعمى، والعرج، والشلل، والبكم، وأشباهها؟

وهكذا أخذ المسيح (عليه السلام)، يغزو العقول والأفكار، بما يريه من المعجزات والكرامات. وما يبديه من الأخلاق والفضائل، وما يخفّفه من الشرائع الموسوية المشدّدة، وما يعيشه من البساطة في المأكل والملبس وسائر الشؤون الشخصية.

ــ 7 ــ

وقد كان المسيح (عليه السلام)، قوي العزيمة، صلب الإرادة في تبليغ الناس وإرشادهم. لا يبالي بما يلاقيه من الأتعاب الجسدية والمضايقات الروحية ــ من جماعة اليهود الحساد.

ولم يقتصر تبليغ المسيح بنفسه الكريمة..

فقد جمع حوله نخبة من الرجال الأطهار، الذين سمّاهم (بالحواريّين) وكان هؤلاء في مرتبة رفيعة من السمو الروحي، والرفعة النفسية، ولم يكفر هؤلاء بالمسيح طرفة عين،

كما لم يتبرأوا من تعاليمه النيّرة برهة من الزمن ــ لا كما ينسب أهل الكتاب إليهم: من أنهم ارتدّوا، فإن ذلك تحريفات أهل الكتاب في جملة ما حرّفوا من التاريخ والأحكام ــ .

وقد كان الغالب أن يلازم المسيح (عليه السلام) هؤلاء في حله وترحاله.

كما أن المسيح (عليه السلام)، كان يبعث بهم رسلاً إلى مختلف البلاد، لهداية الناس إلى الدين المسيحي الجديد، وتبشيرهم بالنبي المبعوث.

ففي ذات مرة، بعث المسيح بأحد الحواريّين إلى الروم، وزوّده ــ بأمر الله تعالى ــ بمعجزة إبراء الأكمه والأبرص فذهب ــ كما أمر المسيح ــ وأخذ في تبشير الناس ــ وإذا طالبوه بالمعجزة دليلاً على صدقه، أبرأ الأعمى وشفى الأبرص، وبذلك قوي أمره، والتف حوله الناس.

ولم يمض زمان حتى وصل الخبر المدهش إلى ملك الروم.

طلبه الملك.. وقال له، هل أنت رسول النبي الجديد؟ وهل صحيح أنك تبرئ الأكمه والأبرص؟ أجاب (الحواري) بالإثبات.

فأمر الملك بإحضار غلام منخسف الحدقة، لا عين له ــ إطلاقاً ــ وقال: إن كنت صادقاً، فأبرئ هذا الغلام.

فأخذ (الحواري) بندقتين من الطين، وجعلهما في مكان عيني الغلام، ثم دعا الله سبحانه وتعالى، فإذا هو بصير يرى كل شيء، وله عين صحيحة.

تعجّب الملك وآمن بالمسيح. وأنزل الحواري منزلاً حسناً، وقال له: كن معي، ولا تخرج من مصري، وهكذا علا أمر المسيح في تلك المنطقة.

ــ 8 ــ

وذات مرة أرسل المسيح (عليه السلام)، أحد الحواريّين إلى بعض البلاد، وعلّمه الدعاء الذي يحيي به الموتى ــ بإذن الله تعالى ــ.

دخل الحواري تلك البلاد، وأخذ يبشر بالدين الجديد، ويقول: أنا أعلم من طبيب الملك، إنه يعرف شفاء بعض الأمراض، وأنا أعرف إحياء الموتى ــ الذي لا يقدر عليه إلا الله ورسُله ــ وسمع الملك بالنبأ، واغتاظ، لأنه اعتبر كلام الحواري حول طبيبه تحدياً بالنسبة إليه، ولذا أمر بعض جلاوزته بقتل الحواري.

لكن طبيب الملك كان رجلاً حكيماً ــ وكان في الباطن ــ من رسل المسيح، ولم يظهر ذلك منذ أن تسنّم هذا المنصب ــ فنهى الملك، وقال: الأفضل ــ أيها الملك ــ أن تحضر هذا المدعي، فإن صدق في مقالته، فما أحسن هذا الذي يقول، وإن كذب كانت لك الحجة عليه أمام الناس.

قبل الملك مشورة طبيبه، فأمر بإحضار (الحواري)، وقال له: أنت الذي تزعم أنك تحيي الموتى؟ قال (الحواري): نعم ــ بإذن الله ــ قال الملك: إنه قد مات لي ابن منذ زمن فإن أحييته آمنت بك وإلا ضربت عنقك.

قبل (الحواري) كلام الملك.. فقام الملك يصحبه خلق كثير إلى المقابر، حتى وقف الجميع على قبر (الولد الميت) فأخذ يدعو (الحواري) في الظاهر، ويُؤمّن طبيب الملك على دعائه في الباطن، وإذا بالقبر ينشق، ويقوم الولد من القبر حياً، ويقذف بنفسه في حجر أبيه الملك.

بهت الجميع لهذا الحادث، وفرح الملك أشد الفرح.

ثم توجّه إلى الولد، وقال له: أي بني! من الذي أحياك؟

توجه الولد إلى الجماهير الحاضرة، حتى وقعت عينه على (الحواري)، فقال: يا أبت إن هذا الذي دعا الله بإحيائي، ثم نظر نظرة أخرى إلى الجماهير، حتى وقعت عينه على (الطبيب) وقال يا أبت! إن هذا أيضاً كان يؤمّن على الدعاء.

وقد أحياني الله سبحانه ببركتهما.

هنا، آمن الملك، وآمن معه جمع غفير، وأعظم جماعةٌ أمر المسيح حتى قالوا فيه بالألوهية، لكن جماعة من اليهود الحساد، لم يبرحوا مقالتهم السابقة من الطعن في المسيح ورسله، وقولهم إن هؤلاء سحرة لا أكثر من ذلك.

ــ 9 ــ

وقد وقعت في زمن المسيح (عليه السلام) قصة تشبه القصة السابقة.

فقد أرسل المسيح (عليه السلام) إلى (أنطاكية) نفرين من تلاميذه، ليبشّرا الناس بالدين الجديد وأمرهما أن يبدءا بالضعفاء، ثم الأقوياء، وأن لا يصطدما بالجبابرة في أول الأمر.

جاء الرجلان إلى (أنطاكية) فدخلاها في يوم عيد لهم، فوجدا أن القوم يعبدون الأصنام، فعجّل الرسولان على القوم بالتعنيف واللوم.

وهنا ثارت ثائرة الجبابرة، لما لاقت الأصنام من الإهانة، وتلقّوه هم من التعنيف، وأمروا بالرجلين إلى السجن، بعد ما وشوا بهما إلى الملك.

وعرف (شمعون) وصي المسيح بأمر الرسولين، فجاء إلى أنطاكية، واخذ يجالس الضعفاء، والفقراء حتى التفّ حوله جمع منهم، وأخذوا يعتقدون بالدين الجديد، وانتهى أمر شمعون إلى الملك فسأل عن جلسائه: منذ متى وهذا الرجل في بلادي؟ قالوا منذ شهرين، فأمر بإحضاره، وحين أحضر وسأله الملك عن مسائل، تحبّب إليه شمعون في الكلام، حتى أحبّه ورأى الملك من عقله وذكائه ما أبهره، ولذا طلب منه أن يصاحبه ويلازمه.

قبل شمعون مصاحبة الملك، فقد كان هذا منتهى مقصده، إنه كان يريد أن يؤثر في قلب الملك، وذات مرة رأى الملك في منامه ما أدهشه وأفزعه، وحين استيقظ سأل (شمعون) عن تفسير منامه؟ ففسّره بما سرّ الملك، ومرة أخرى رأى رؤيا وفسّر المنام (شمعون) مما ازداد الملك علاقة به، بسبب تفسيره الحسن.

ولمّا علم شمعون أنه استولى على قلب الملك سأله ذات مرة قائلاً: أيها الملك إني قد سمعت أن في حبسك رجلين عابا عليك دينك، وفنّدا رأيك في عبادة الأصنام؟

أجاب الملك: نعم، وقصّ على شمعون قصة الرجلين.

قال شمعون: أيها الملك، مر بإحضار الرجلين، حتى نرى مقالتهما، ونسمع حجّتهما؟ وافق الملك على ذلك وأمر بإحضار الرجلين.. وجرى بين (شمعون) و(الرسولين) الحوار التالي:

شمعون: ماذا تقولان أيها الرجلان؟

الرسولان: إنا ندعو إلى نبذ عبادة الأصنام، وعبادة (الله) الإله الواحد الذي لا شريك له.

شمعون: هل يسمع هذا الإله دعوتكم إذا دعوتماه، ويجيبكما إذا سألتماه؟

الرسولان: نعم..

شمعون: هل يشفي لكما الرجل (الأبرص) إذا سألتماه ذلك؟

الرسولان: نعم.

أمر شمعون بإحضار (أبرص) وطلب منهما الدعاء لشفائه؟ فدعوا الله تعالى. ومسحاه بأيديهما، فبرئ في الساعة.

قال شمعون: وأنا أقدر على هذا العمل، فجيء بأبرص آخر، ودعا (شمعون) سرّاً ومسحه، فشفي فوراً، وإنما فعل ذلك تمهيداً لما يجلب نظر الملك، وأصحابه، حين يظهر عجزه عمّا يأتي به الرسولان.

شمعون: بقي أمر إن قدرتما عليه آمنت بإلهكما؟

الرسولان: وما هو هذا الأمر؟

شمعون: هل يقدر إلهكما على إحياء الميت؟

الرسولان: نعم.

شمعون ــ مقبلاً على الملك ــ : هل لك ميت يعنيك أمره؟ قال الملك: نعم.. ابني مات قبل مدة..

قال (شمعون): أيها الملك: إن الرجلين ألزما على نفسيهما الحجّة، فإن تمكّنا من إحياء ابنك آمنا بهما، وظهر صدقهما وإلا كان لنا معهما خلاف ذلك.

قبل الملك، ثم توجه الجميع إلى المقبرة.

وأخذ الرسولان يدعوان الله سبحانه، في إحياء ولده، ويؤمن شمعون لدعائهما ــ سرّاً ــ فما كان بأسرع من أن انشق القبر، وقام (الفتى) حيّا صحيحاً.

سرّ الملك بذلك سروراً بالغاً ودهش الجميع من هذا الأمر الغريب الذي لم يعهدوه من ذي قبل، وعلموا صدق (الرسولين).

ثم أقبل الملك على ولده قائلاً: من أحياك يا بني؟

قال الولد: لقد كنت ميّتاً، وإذا بثلاثة أنفار على شفير قبري يدعون الله تعالى لإحيائي، فوهبني الله الحياة، بدعائهم.. وهؤلاء الثلاثة هم (هذان، وهذا) مشيراً إلى الرسولين و(شمعون) فأسلم الملك، وأسلم وزراؤه وأسلم كثير من أهل القرية، لله رب العالمين، وآمنوا بنبوّة عيسى المسيح (عليه السلام).

(واضرب) بيّن (لهم مثلاً أصحاب القرية) أي انطاكية (إذ جاءها المرسلون) من قبل المسيح (عليه السلام) (إذ أرسلنا إليهم) أولاً (اثنين) الرسولين (فكذّبوهما) وسجنوهما، (فعزّزنا بثالث) هو شمعون، جاء ليعزهما وينصرهما (فقالوا إنا إليكم مرسلون).

وجرى الأمر على ما تقدّم..

ــ 10 ــ

وقد اشتهر إحياء المسيح للأموات، وشفاؤه للأمراض، وخرقه للنواميس العادية إعجازاً. ولذا ازدلف إليه الناس من كل مكان، يطلبون الشفاء والإحياء منه.

ففي ذات مرة، اجتمع عليه ما يقارب الخمسين ألفاً من المرضى، فأبرأهم بإذن الله تعالى.

وفي قصّة أخرى: دخل دار دهقان، كان أضاف جمعاً، ومن المصادفات أنه لم يكن عنده ماء للأضياف، وكانت في دار الدهقان جرار مصطفّة، فمشى عيسى (عليه السلام) بين تلك الجرار وأخذ يضع يده على أفواهها، فامتلأت ماء بإذن الله تعالى.

وكان لعيسى (عليه السلام) صديق في أحد البلاد، فإذا مرّ المسيح بذلك البلد نزل عنده، وذات مرّة ورد البلد، ودخل دار الصديق، فلم يجده. فسأل عنه؟ قالت أُمه: إنه قد مات منذ زمان فقال لها عيسى (عليه السلام) وهل تحبين أن أحييه؟ فأجابت، وماذا تنتظر؟ وجاء المسيح في الغد وذهب مع الأم إلى المقابر، ثم دعا الله تعالى، فانتفض الرجل حيّاً بإذنه سبحانه، ثم قال المسيح إنه يعيش عشرين عاماً، ويتزوّج، ويولد له فكان كما قال (عليه السلام).

ومرّ عيسى ــ ذات مرّة ــ في الشارع ــ فإذا بسرير يحمل، وعجوز تبكي خلفه فدعا الله سبحانه لإحياء ولدها، وإذا بالولد يجلس على السرير حياً، مما أثار دهشة الناس ثم نزل على أعناق الناس، ولبس ثيابه، وذهب إلى أهله مع أمه، وتزوّج بعد ذلك، وولد له.

ومر عيسى في بعض سياحاته على قبر سام ابن نوح، فدعا الله سبحانه لإحيائه، فقام سام من القبر ينفض عنه غبار التراب، وقد شاب نصف رأسه.

وهكذا أخذ المسيح (عليه السلام) يزرع البلاد والقرى والأرياف وينشر فيها الأخلاق الحسنة والمواعظ والنصائح، والخوارق التي تبهر الألباب. وكان في الغالب يسافر مع

تلاميذه من هنا إلى هناك، يرشد الناس إلى أمور دينهم، ودنياهم، ويهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

لكن اليهود كانوا كلّما رأوا منه فضيلة أو منقبة أو خارقة، ازدادوا حسداً وعتوا، وكانت تلك المعجزات تنقلب في نفوسهم إلى الحقد والغل، كالمطر الطاهر الذي إذا نزل على الجيفة، ازدادت عفونة ونتناً.

ــ 11 ــ

وفي ذات مرة (قال الحواريون) وكان بصحبتهم جمع كثير: (يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء)؟ وكان هذا السؤال من المؤمنين ليرى ضعفاء الإيمان قدرة الله تعالى، بالإضافة إلى أنهم أرادوا (عين اليقين)، أما غيرهم فقد كانوا لا يفرّقون بين استطاعة (الله) واستطاعة الأصنام ويظنّون أنه كما لا يقدر الصنم على مثل هذه الأعمال، كذلك إله المسيح لا يقدر على مثلها.

فــ(قال) لهم عيسى (عليه السلام): (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) فلا تسألوه سؤال اقتراح وإن كان لا بأس بالسؤال لأجل قوة اليقين ــ كما سأل إبراهيم (عليه السلام) ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى ــ.

أجاب الحواريون على كلام عيسى (عليه السلام):

(قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) بالإيمان، لأن الأكل معاينة وهي فوق العلم (ونعلم) علماً يقينياً (أن قد صدقتنا) في قدرته تعالى على كل شيء، وأنها ليست كقدرة الأصنام ــ فإن الأصنام المعبودة لا تقدر على أقل شيء ــ .

(ونكون عليها) أي على المائدة المنزلة من السماء (من الشاهدين) الذين يشهدون إنها نزلت من السماء بقدرته سبحانه، فإذا سئلنا في المستقبل: هل رأيتم آثار قدرة الله الخارقة؟ نجيب بالإثبات، ويكون ذلك أدعى إلى إيمان الناس.

هنالك دعا المسيح ربه تعالى لإجابة طلب هؤلاء (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً) يوم عيد، فإن الناس يتخذون الأيام العظيمة التي تجدّد فيها نعمة عظيمة من الله عيداً، فيعيّدون ذكرى ذلك اليوم كل عام ــ كاتخاذ يوم ميلاد، أو نصر، أو ما أشبه، عيداً يعاد السرور والفرح فيه كل عام.

(لأولنا وآخرنا) يكون ذلك العيد لزماننا، وزمان من يأتي بعدنا، (و) يكون نزول المائدة (آيةً) علامةً دالّة على عظيم قدرتك (منك) يا رب (وارزقنا وأنت خير الرازقين) وهنا أجاب الله دعاء المسيح (عليه السلام).

فــ(قال الله إني منزّلها) أي المائدة (عليكم فمن يكفر بعد) أي بعد نزول المائدة (منكم) فيشك في الألوهية أو نبوّة المسيح (فإني أعذبه عذاباً) شديداً (لا أعذّبه) أي لا أعذّب مثل ذلك العذاب في الشدة (أحداً من العالمين) لأنه كفر بعد المعاينة، وذلك عناد ولجاجة.

ــ 12 ــ

رأى الناس سفرة حمراء، بين غمامتين، تهوي من ناحية السماء إلى الأرض حتى وصلت ووقفت أمامهم، وكان عليها أرغفة، وسبع أسماك. فلما رآها عيسى (عليه السلام) بكى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة. فوجدوا منها رائحة طيّبة، لم يجدوا مثل ذلك الطيب قبله. فقام المسيح (عليه السلام) وتوضأ وصلّى، ثم قال للحاضرين وهم جمعٌ غفيرٌ: بسم الله! فأكل الجميع من ذلك الطعام حتى شبعوا. وكان هذا إعجاز آخر.

ومن الطبيعي أن يتذكّر الجميع هنا، ما سمعوه عن أسلافهم، من نزول المائدة ــ المن والسّلوى ــ على أجدادهم، ببركة الكليم موسى (عليه السلام).. فقد أتى هذا النبي بمثل ما أتى به النبي من قبل، كما أن من الطبيعي أن يتذكّر الجميع قصة نزول المائدة على أمه (مريم) حين كان زكريّا (عليه السلام) كلّما دخل عليها وجد عندها رزقاً.. وقد كان من الطبيعي أيضاً أن يشبه نزول المائدة على الأمم السابقة، نزول المائدة على الطهر البتول فاطمة (عليها السلام) ــ في قصة طويلة ــ وينزل (الطير المشوي) على رسول الإسلام فيأكله هو والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

لقد أكل من تلك المائدة المنزلة على المسيح (عليه السلام)، أكثر من ألف وثلاثمائة فقير ومريض وما أشبه من أهل الفاقة والعاهة ــ فقط ــ أمّا غيرهم فكثيرون. ولمّا أتمّوا الأكل، رجع الطعام كما كان، كأن لم يأكل منه أحد. ثم ارتفعت المائدة إلى السماء.

وهكذا كان، تنزل المائدة أربعين صباحاً، عنباً ــ يوماً دون يوم ــ يراها الناس وقت نزولها، ووقت صعودها، ويأكلون منها، ثم ترجع كما كانت بدون نقص.

وقد تكبّر الكبار أن يشتركوا مع الفقراء في الأكل، فقرّروا ــ ذات مرة ــ أن يستأثروا هم وحدهم بها، وان يمنعوا الفقراء منها، كما أنهم جعلوا يكفرون بها، لكن بعد هذا التقرير لم تنزل المائدة، وارتفعت إلى الأبد.. ومسخ جمع كثير منهم ــ جزاءً لكفرانهم وعتوّهم ــ قردةً وخنازير، فأصبحوا يسعون في الطرقات، ويأكلون العذرة والكناسات.. ثم لم يبقوا إلا ثلاثة أيام حتى هلكوا.